# جرس إنذار

* الكتاب: جرس إنذار (مجموعة قصصية)

* تأليف: سيد جعيتم

* مراجعة لغوية: محمد محيي الدين طلبة

* تصميم الغلاف: قسم الجرافيك بدار المنتدى

* إخراج داخلي: القسم الفني بدار المنتدى

* رقم الإيداع: 4651/ **2023**

* الترقيم الدولي: 978-977-8954-20-3

**المدير العام: الأستاذ عزيز عثمان**

**لمراسلة الدار:** daralmuntadaa@gmail.com 

**واتس آب:** +20 100 518 6476 

**فيسبوك:** **دار المنتدى للنشر والتوزيع** 

جميع الحقوق محفوظة لدار المنتدى للنشر والتوزيع

---

كل ما ورد في هذا العمل مسئولية مؤلفه، من حيث الآراء والأفكار والمعتقدات، وكونه أصيلًا له غير منقول، وأية خلافات قانونية بهذا الشأن لا تتحملها دار النشر.



(مجموعة قصصية)

# جرس إنذار

تأليف

**سيد جعيتم**





# إهداء

إلىٰ من ساندتني وأكملت طريق أمي،

إلىٰ أم أولادي ورفيقة دربي.

❊ ❊ ❊



# حوار الطرشان

- إنَّهُ العهدُ أوثقهُ بيني وبينك، احفظْهُ واجعلْ لكَ عزمًا، لا تَنقضـهُ فينفرط عقدُكَ وتُطْردُ مِنْ جنَّتِك.

ثَقُلتْ الأمانَة، نَسىٰ، كعادَتِه استعذَبَ الوسوسة، تجرأَ وفتحَ العهد، شرِبَ وأرَاقَ الخمرَ فوقَهُ فمحا ما جاءَ به، ضاعَتْ الأمانَةُ.

اكفهرَّت السماءُ وأرعدَتْ وبَرقَتْ وانفَطَرَتْ باكية، سالَتْ أودية، فَشِلَتْ الطيورُ في التحليق، تَشابَكَتْ أسرابُ الحيواناتِ التي راحَتْ تعدو بغيرِ هدىٰ، اهتزَّتْ الجبالُ وخارَ تماسُكُها، خرجَتْ فوهاتُ البراكينِ من قاعِ البحور، انطفأتْ نيرانُ المدافئ وعمَّ الصقيعُ والظلامُ أركانَ البلدة.

الجميعُ يتساءلُ عن مصدرِ الصوتِ وَسر قوتِه:

- «يا أولادَ الأفاعي، من كانَ منكُم بدونِ خطيئةٍ فليُلقِها بحجر»

استحسَنُوا الخطيئةِ، طأطأوا رُءوسهمْ في حضرتِه ثم عبدوه.

من بينِ الجموعِ يدٌ صغيرةٌ تقبضُ بشدةٍ علىٰ قصاصةٍ صغيرةٍ متبقيةٍ من العهدِ لم تمحِ الخمرُ كتاباتِها:

"لَا تَشْهَدْ شَهَادَةَ زُورٍ ولا تتبع خطوات الشيطان".

اشتعلَتْ داخلَهُ نيرانُ الرغبة، أعْمَتْهُ، راوَدَهَا فاسْتَعصَتْ واستَعصَمتْ، ذكَّرتْهُ بالعهد، صممَ علىٰ ارتكابِ المعصية، اغتصبها.

بللَ الخمرُ شاربَه، تجشَّأ بصوتٍ مُقَزِّز، نظرَ لعشيقَتِه التي تموءُ تحتَهُ كقطةٍ جائعةٍ، قلَّبَ يديه، كلتاهما مُلوثتانِ ولونُهما يميلُ للسوادِ إلا نقطةً منيرةً من آثارِ دمائِها، لم تفلحْ المياهُ في إزالَتِها.

تدلَّىٰ لسانُ عشيقتِهِ، تَفُحْ كحيةٍ رقطاء:

- «ارجموا الزانية»

رَدَّدَ الجميعُ خلفَها.

- «طهِّروا بلدَتَكُم من رجسِهَا»

في ساحةِ العدل، تجمَّعَ أهلُ البلدةِ كشهودِ زورٍ علىٰ جُرمٍ لم يروه.

- «هي تحملُ ابنَ الشيطانِ، زانية»

- «نجسٌ تَجْلِب النحسَ للقرية»

كلهم شاهَدوها غارقةً في دمائِها، تُلَمْلِمُ بقاياها، لم يسألْ أحدٌ مَن الجاني.

لم يستغرقْ الأمرُ طويلًا، أَصدرَ حُكمَهُ:

- «تُعدَمُ رَجمًا بالحجارة»

من بينِ الجموعِ هبَّ الطفلُ منتصبًا يصيح:

- «يا أولادَ الأفاعي»

❊ ❊ ❊



# الستر

لم تحضر السيارة التي تقل وردية الليل، قرر العودة لمنزله فهو يجد مشقة في ركوب المواصلات العامة؛ لوجود بتر في قدمه اليسرىٰ أسفل الركبة إثر حادثة.

منَّىٰ نفسه بقضاء سهرة طيبة مع زوجته التي تغيرت وأصبحت عصبية، يشعر بها معه جسدًا بلا روح.

هي فرصة جاءت دون ترتيب؛ فالبيت خالٍ بعد إرسالها البنتين إلي بيت والدتها لتتاح لها الفرصة لتنظيف الشقة دون أن يزعجها أحد.

رن جرس الباب، لا مجيب.

كرر رن الجرس، سمع دبيب أقدام وأتاه صوتها:

- «مين؟»
- «أنا حسن يا سعاد»
- «حسن! دقيقة واحدة»

مرت دقائق، فتحت الباب.

ترتدي قميص النوم الأسود الذي يفضله.

استغرب قليلًا!، قال ربما كانت تستحم، لكن الانزعاج البادي علىٰ وجهها ورائحة عطرها جعل الشك يتسلل لنفسه.

سارع بدخول حجرة النوم، لم يجد بها أحدًا، سمع أقدامًا متعجلة بالصالة؛ سارع بالخروج، أذهلته المفاجأة!



صديقه المقرب نبيل بملابسه الداخلية ويحمل باقي ملابسه وحِذاءه في يده، يتجه لباب الشقة.

سارع للإمساك به، دفعه نبيل، سقط، جثم فوقه ويده تضغط علىٰ فمه لمنعه من الاستغاثة، سارعت سعاد بإحضار سكين هددته بها، أخذ نبيل منها السكين وضعها فوق رقبته، شعر بنصلها يحذ في جلده، وسال دمه من أنفه إثر لكمات نبيل، غاب عن الوعي وتم تقييده ووضع شريط لاصق علىٰ فمه.

فتح عينيه ببطء لا يستوعب ما حدث، سعاد ونبيل، يا إلهي كمْ لجأتُ لنبيل ليصلح ذات البين بيني وبينها.

ترحم علىٰ أبيه؛ فقد كان يوصيه دائمًا:

الصديق نستقبله في المقهىٰ.

ساد الصمت علم أنهما قد ناما، وأيقن أنه مقتول لا محالة.

بدأت تباشير الفجر في الظهور، أتاه صوت شيخ المسجد يتهجد قبل الأذان، دعا ربه أن ينجيه من أجل ابنتيه.

تسللت شمس الصباح من النافذة، خرجت من حجرة النوم شبه عارية، زكمته رائحة كريهة تنبعث منها رغم تعطرها، خرج نبيل خلفها، جلسا يتشاوران في طريقة التخلص منه.

صوت صرير مفتاح في الباب، صاحت:

- «أكيد دول البنات»

ساد الارتباك.

صرخت الفتاتان لرؤيتهما أبيهما مقيَّدًا علىٰ الأرض والدماء تغطي ملابسه.



أمسك نبيل بالسكين وهددهما بالذبح وطالبهما بالسكوت.

لاذت الفتاتان بأبيهما، ترتجفان وتبكيان.

احتضنتهما أمهما وراحت تطلب منهما الهدوء.

وجه نبيل حديثه لسعاد:

- «المشكلة كده اتعقدت ومالهاش إلا حل واحد»

ارتعبت سعاد من نظرات نبيل لابنتيها، وقفت بينهما وبينه.

هجم نبيل علىٰ حسن يشبعه ضربًا بقدمه ويديه.

صرخ نبيل علىٰ إثر طعنة في ظهره، استدار وخطف السكين من يد سعاد وطعنها عدة طعنات، سقط الاثنان.

سأله المحقق عما حدث فأجاب حسن:

- «حاول نبيل سرقتنا، تغلب عليَّ وقيدني، قاومَتْه زوجتي وطعنته وطعنها»





# الطريشة

- «احترس من الطريشة»

يوصيني أبي وهو يودعني قبلَ سفري لموقعِ عملي بالصحراءِ.

يعتبر أهالي المنطقة تلك الحية الرقطاء ضمنَ الشياطين ويستعيذون باللهِ منها، تكمنُ خلفَ كُلّ حجرٍ، تتحينُ الفرصةَ لتهاجمَ، ولا علاجَ إلا ببترِ العضوِ المصابِ قبلَ أن يسري سُمّهَا في باقي الجسد.

تأكدَ الطبيبُ من إيجابيةِ المسحةِ، يكتبُ بروتوكولَ العلاجِ ويصدرُ تَعْلِيمَاته.

مخفضٌ للحرارةِ وقتَ اللزومِ، وقياسُ نسبةِ الأكسجين في الدمِ كَل ساعتين.

تنظرُ إليَّ من خلفِ حصنِها الحجري برأسِها الشيطانِي رافعةً قرنيها، تكوَّرَتْ وأخذت وضع الانقضاضِ، زلزلني الخوفُ، ارتجفتُ بشدةٍ.

طعمٌ مالحٌ تسللَ لحلقي مع قطراتِ عرقي، يَمُرّ الهواءُ أمامَ أنفي، تجذبه نحوها، يفشل في دخولِ صدري، صرختُ، تَحَولَ صراخي لسعالٍ.

أشعرُ ببللِ الكمادات على وجهي وخالتي تضاحكُ أمي:

- «لفي رأسه بمنديل أحمر وهاتي إخوته كي يأخذوا منه الحصبة دفعة واحدة وترتاحين»

وتوصيها بأن تسقيني منقوع الشعير.

كلماتُ طَاقم العلاجِ تداخلَتْ مع صوتِ خالتي الآتي من الماضي.

- «حرارتُه انخفضَتْ، لكن تنفسُهُ غيرَ منتظمٍ، لا بد من وضعهِ على جهازِ التنفسِ الصناعي»

موكبُ طهورِ أخي الأصـغرِ يَمُرُّ أمامي، يركبُ حصـانًا ويلبسُ جلبابًا أبيض وعلىٰ رأسِـــهِ عقال عربي، عطَّرَتْ أمي ثيابَنا، لا تنفذ رائحة العطر لأنفي، فقدتُ حاسةَ اَلشَّمِّ.

- خالتي ترش المِلحَ في أعينِ الحســاد، أصــابت حبةُ ملحٍ عيني، أيقظَني الألمُ.
- «اتصلوا بالطبيب أخبروه.

اِسْتَرَدَّ المريضُ رقم خمسةِ آلافٍ وعيَه»

تسـيطر عليَّ صـورتُها وقرنيها لأعلىٰ وَتَسْـتَعِدُّ للانقضـاض، يسـري سُـمَّهَا اَلنَّافِعِ في جســدي، أرْتَجَفُ رغمَ ارتفاع حرارتي، ســألتُ عن العضــو الذي سيبدءون في بتره، لم أسمعْ إجابةً.

أسمعهم يخبرون الطبيب أنني دخلت في غيبوبةٍ.

ضوء وجه أمي في نهاية نفق مظلمٌ، تشيرُ إليَّ:

- «تَعَالَ»

أرتفعُ في جَوِّ الحجرةِ، أتعجب فجسـدي ما زالَ مَسْـجىٰ علىٰ السـريرِ، معلقا في الهواءِ.

يبذلُ الأطباءُ جهدَهم، كلما نجحوا أهبطُ تجاهَ جســدي، وإن ظَلَّلَتْ معلقًا بين السماء والأرض.

❊ ❊ ❊



# سعيدة

رفَسَت الباب بعنف، انفتح علىٰ مصراعيه، العرق جعل جسدها لامعًا، تجاهد لتلتقط أنفاسها المتقطعة، ثنت قدميها حتىٰ لامست الأرض بجسدها، أطلقت زفرةً طويلةً ممزوجةً بالخوف والضيق.

أصابت الدهشة رهوان.

- «سعيدة حبيبة الروح ماذا أصابك؟»

غالب وجعه، قام من مرقده عَارِجا علىٰ قدمه المصابة، اقترب منها، راح يمسح عنقه في عنقها يهدي من روعها:

- «يكاد القلق عليك يقتلني»

نظرت إليه بعينين قرأ فيهما الرعب والخوف، خرجت كلماتها ثقيلة متحشرجة:

- «سمعته يخاطب صديقه أن عرجك يعيق حركتك وعلاجك مكلف»

ابتلعت ريقها.

- «في طريقنا للعودة غيَّر خط سيرنا، عبرنا إلىٰ منطقة نائية بعيدة عن العمران، أوقفني أمام مبنًىٰ تتصاعد منه الروائح الكريهة وتصبغ الدماء الأرض حوله، تبادل الحديث مع رجل تغطي الدماء ثيابه، لمحت آخر يحمل في يده رأس حمار مذبوح وضعه في جوال مملوء بالرءوس»

راح رهوان يطمئنها فهي بعيدة الآن عن الخطر، نظرت إليه وقالت:



- «أعتقد أنه سيبيعك لهم وأن هذا مصيري لو مرضت»

ساد الصمت وعم المكان الظلام وإن ظلا ملتصقين ببعضهما.

في الصباح تم ربط رهوان بجوار العربة، سارا ببطء في الطريق المؤدي إلىٰ مكان الذبح، مالت بفمها علىٰ عقدة الحبل المربوط بها رهوان، شدتها بعنف حتىٰ انفكت، صاحت:

- «اهرب يا رهوان»

ارتبك رهوان للحظات، تحامل علىٰ نفسه، حاول أن يسرع في السير عكس اتجاه الطريق، قفز صاحب العربة خلفه، تعمدت سعيدة السير مسرعة وسط العربات، احتار الرجل؛ فرهوان يسير للخلف وسعيدة بالعربة للأمام.

صوت فرملة سيارة أعقبه صوت اصطدام والرجل وسط الطريق يلطم خديه.





# أرى بأعينك

يثبت رابطة عنقه في مكانها الصحيح، يرش علىٰ جسده البرفان الذي تعشق رائحته، يلمع حذاءه، أصبح جاهزًا للقياها.

يتيه بحبها عندما تستند إلىٰ كتفه، يلف يده حول خصرها يحميها، عبير ياسمينها يسكره، شعرها الحريري يداعب وجهه، ترنم نهره حتىٰ فاض علىٰ ضفتي جنتها.

ارتدىٰ نظارته السوداء، اتكأ علىٰ عصاه، تحسس صورتها علىٰ الجدار.

هل تأخرت عليكِ حبيبتي؟





# نهاية رحلة

عبير طعم الهواء في حلقي يضفي عليَّ الطمأنينة، نسمات الصباح الباردة أيقظت كل حواسي، يحملني الهواء؛ منتشية، أغمضت عيني لأحتفظ بما أراه من جمال، سويعات وألتقي حبيبي.

أبي يسأل أمي:

- «البنت صلت؟»

تكذب أمي:

- «صلت يا حاج»

تنجيني بكذبها من العقاب، أكره أبي قاسي القلب، يعاقبني وأمي بالضرب المبرح لأتفه الأسباب.

تزوج بعد وفاتها بأيام ليكمل نصف دينه، كرهته وكرهت ما يؤمن به، تمردت.

أخبر الجميع أن الشياطين سكنتني.

بدأت جلسات التعذيب في سجني المنزلي، يعذبني في الدنيا لينجيني من عذاب الآخرة، نار جهنم أرحم من ناره.

لم تشفع له ثروته التي تركها لي ولم أترحم عليه، تمتعت بحريتي واقترنت بمن شاركني معتقدي أن للكون خالقًا بدأ الخلق وترك الطبيعة تتكفل بالباقي.

رزقتني الطبيعة بابنتين.



قرب منزلنا مبنيان شاهقان متقابلان كأنهما يتحفزان للانقضاض علىٰ بعضهما، لم تطأ أقدامنا أيًّا منها للعبادة.

مات زوجي وهاجرت بنتاي، لم أسأل عن ديانة زوجيهما، ما لبثت أخبارهما أن انقطعت.

غزت التجاعيد وجهي والشيب شعري، وعرفت الوحدة.

جدران حجرتي تضيق حتىٰ تعتصرني، وأضحت الكوابيس ضيفًا ثقيلًا، أرتعب من تعفن جسدي بعد موتي في حجرتي، رغمًا عني صرخت:

- «يا رب»

ضجيج ولهو أولاد الجيران يذكرني بأنني حية، غاب صوتهم طرقت بابهم للاطمئنان، دفء ترحيبهم أسعدني، جدتهم سيدة ريفية، رافقتني حتىٰ باب شقتي.

فرحت بزيارتها لي في اليوم التالي، اعتذرت لها عندما طَلَبتْ سجادةً لتصلي، قالت:

- «الأرض كلها مسجد وطهورًا»

هي المرة الأولىٰ التي يسجد فيها أحد لله في بيتي.

زادت عناية جيراني بي، لم يسألني أحد منهم عن أي شيء.

- «ممكن أفتح الراديو علىٰ محطة القرآن الكريم؟»

أخذتني المفاجأة، قرآن في بيتي!

أمسك صوت المقرئ بأذني: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾ [الحَج : ٤٦]

بكيتُ، مسَحَت علىٰ رأسي، زحف الاطمئنان لنفسي، انطفأت النيران التي لم تفلح المسكنات في إخمادها.

سألتُها:

- «هل يقبلني الله؟»
- «هو الرحمن الرحيم»

تعجبت من طلبها أن أدعو الله لها.

قررتُ زيارة بيتِ اللهِ الحرام، علىٰ باب البيت يودعني الجيران وأهلي الذين لم أرَهم من سنين.

ملفوفة في ثيابي البيضاء أستعذب الدفء، تلفني ألوان الطيف زاهية تتسابق حبات اللؤلؤ المضيء للصعود منها تحملني معها.





# الكحريتة

يحتج زوجي علىٰ موافقتي لفكرة أمه ويقول:

- «سيبك من الخزعبلات، أثق بأن ربنا سيرزقنا بالذرية الصالحة»

نظرت إليه بعينين دامعتين.

- «تعِبْت، تحملت الكثير من كلام الأهل الذي لا يخلو من اللوم، جميعهم يطالبونني بأن أتجدعن حتىٰ يفرحوا بخلفتنا، وكأن الأمر بيدي، تعبت من زيارة الأطباء؛ كلهم أكدوا أنه لا توجد موانع عندنا تمنع الحمل، أربع سنين ومافيش حمل، مش هنخسر حاجة خلينا نجرب، والدتك أكدت أن كثير ربنا رزقهن بالخلفة بعد الزيارة وتأدية الطقوس المتوارثة من أيام قدماء المصريين»

احتضني بحنان وراح يمسح دموعي.

قبل الغروب وصلت مع حماتي لمنطقة بني حسن الأثرية جنوب مدينة المنيا بجوار معبد الإلهة "باخت"، السماء تبدو غاضبة، تلقي بحمم من الماء فوق الأرض الطينية، خضنا في الوحل.

دلنا الأهالي علىٰ (الكحريتة).

قابلتنا العريقة (الشيخة)، سيدة خمسينية، ضخمة الجثة، سمراء، تبدو عليها علامات القوة ترتدي ملابس سوداء وتعمم رأسها بغطاء أشبه بأغطية رأس الرجال، امتزج لون بشرتها وملابسها السوداء مع عتمة الليل، لم يفلح ضوء المصباح الذي تحمله إحدىٰ المساعدات في تبديد الغموض فبدا المشهد كلوحة لا ينطبق عليها المنطق تتحرك في خلفيتها الأشباح.

رحبت بنا بكلمات مقتضبة،

طلبت خمسمائة جنيه لخدام سيدة المكان (الإلهة باخت).

علىٰ حافته وقفت أنظر للمنحدر بخوف، تراجعت خطوة للخلف، لا أتخيل أنني يمكن أن أتدحرج حتىٰ أسفله.

يد العريقة الثقيلة علىٰ كتفي:

- «ارقدي علىٰ جنبك الأيمن، ظهرك عندي ووشك للكحريتة»

ترددْت.

تأمر:

- «ارقدي»

نظرت مرتعبة تجاه حماتي الواقفة بجوار حاملة المصباح، أشارت إليَّ تطمئنني، نفذت الأمر، رقدت فوق الأرض الموحلة وأغمضت عيني.

رفعت الشيخة ذراعيها تجاه المعبد وبدأت تنادي بصوت جَهْوَرِيٍّ:

- «بركاتك يا ستنا يا حنينة، أمانتك في حضنك، مش طالبة كثير، عايزة تبقىٰ أرض عفية مش أرض بور»

أترقب دفعها لي لأسفل، تتسابق دقات قلبي، بدأت أقرأ المعوذتين بصوت مرتفع، يد العريقة تلمس ظهري، انتفضت مرتعشة ورغم برودة الجو تساقطت حبات عرق من جبيني، ناديت:

- «يا رب مفيش واسطة بينك وبين عبيدك»

قبل أن أكمل دعائي تدحرجت هابطة بقوة دفع التعريفة.

المسافة لا تتعدىٰ العشرة أمتار، لكنها بدت دهرًا.



رأيت وجه سلفتي ونظرات الشماتة تطل منها، أشاعت بين الجميع أني عقيم، تتمنىٰ ألا أنجب حتىٰ يرث زوجها أخاه.

هبطت متدحرجة، أصابني دوار شديد ونال مني الجهد والتعب، جاهدت للجلوس، نهضت مستندة إلىٰ يد الشيخة وأنا أتوسل لله بصوت مسموع:

- «يا رب لا يأس من رحمتك»

بكيت، أكملت الدعاء:

- «ارزقني يا ربي بالذرية الصالحة»

ثم قرأت:

"رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ".

أنتظر موعد دورتي الشهرية.

❊ ❊ ❊



# لقاء

اليوم موعد التمتع بلقاء محبوبتي، تلك الغالية تتمنع عليَّ ولا أسعد بلقياها إلا علىٰ رأس كل شهر، فأجلس أمامها أتنسم أريجها وأنعم بملمسها.

مستندًا إلىٰ حافظة نقودي العامرة؛ دلفت للداخل.

كنت أفضل لقاءها في مكان راقٍ يليق بحضرتها ويضفي علىٰ نفسي شعورًا بالأبهة والاحترام، لكنني هذا الشهر قررت لقاءها هنا؛ فتكاليف المقابلة ستكون في المتناول مقارنة بالأماكن الفاخرة.

المكان خالٍ من الزبائن وإن كانت أرجاؤه عامرة برائحة شوائها، أتىٰ النادل تعلو وجهه ابتسامة روتينية تُظهر أسنانًا لم يعد للون الأبيض بها أثر، رحب بي، وسألني وهو يقوم بحركة روتينية بمسح المنضدة بفوطة مفعمة بالدهون:

- «طلبات السيادة»
- «ربع كباب وربع كفتة»

تصاعد الدخان الجميل عذب الرائحة حتىٰ غلف جو المطعم، استنشقت بعمق لأُثبت الرائحة في عقلي واختزنها في ذاكرتي، تسلل الدفء لأوصالي وتمكنت مني النشوة، رحت أتطلع حولي.

يقوم بالشواء رجل طويل وعريض المنكبين، يتدلىٰ كرشه أمامه كذقنه المتدلية دون تهذيب، تلاقت أعيننا، بنظرات محايدة محيرة، هز رأسه لي وقال:



- «حتة لحمة صغيرة تستاهل بقك يا سيدنا لفندي، إن شاء الله تبقىٰ زبونًّا علىٰ طول»

تعلقت عيناي به وهو يهوي علىٰ الفحم بمروحة من الريش كبيرة الحجم، وأضاف قطعة من لية خروف مع الشواء فوق الفحم، سرعان ما تفاعلت بفعل حرارة الفحم وأتت بالمطلوب فتصاعد الدخان زكي الرائحة، تذكرت أن أبي كان يسميها "النداهة"؛ فالدخان المتصاعد منها يجلب الزبائن.

أحضر الجرسون دورقًا معدنيًّا به ماء مثلج، وحتىٰ أصبر نفسي لحين نضج المحبوبة، انشغلت بمتابعة ما يعرض علىٰ التلفزيون.

مضت نصف ساعة والرجل لم تفتر همته وبهدوء وحنكة يقلب الأسياخ ويهوِّي علىٰ الفحم حتىٰ لا تفتر حرارته، بيني وبين نفسي أتعجل الوجبة وقد تمكن مني الجوع حتىٰ تمنيت أن يأتي الطعام قبل إتمام نضجه.

أتىٰ النادل ببعض الأرغفة الطازجة، وطبق سلاطة خضراء مشطشطة.

كطقس ألتزمه بدأتُ أحك ظهر أرغفة الخبز ببعضها للتخلص من آثار الردة، الملتصقة بظهرها.

هزمني الجوع ورائحة الشواء، قضمت لقمة صغيرة في فمي وبلعتها بملعقة من السلاطة الخضراء، وقبل أن أبوح بشوقي، أحضر النادل الكباب والكفتة، تزينهم قطع البقدونس المنثورة فوق الوجه والمفروشة أسفله.

سأمضغ علىٰ مهلي لأستلذ وأزيد استمتاعي، وأستمع للتلفزيون حتىٰ تزيد المتعة.

بعد السلام والمرحبة يا أولاد بلدنا يا طيبين، ظهرت المذيعة المشهورة بالخبطات التحقيقية ترافقها طبيبة بيطرية وبعض رجال الشرطة، أعلنت



ضبط ستين حمارًا مذبوحين ومسلوخين تمهيدًا لبيعهم للمطاعم الشعبية لإعداد الحواوشي والكباب والكفتة.

وقفت اللقمة في حلقي وأصابتني "زغطة"، جحظت عيناي وشعرت أن روحي ستغادرني، بحركة لا إرادية أمسكت بدورق المياه، ذبابة تكافح الغرق تسبح علىٰ وجه وعاء الماء.

رغبة شديدة في القيء أمسكت بي، نظرت تجاه صاحب المطعم، اختفت نظراته المحايدة وحل محلها نظرة حادة كلها تهديد وعدوانية، يتظاهر بسنِّ سكينٍ علىٰ أخرىٰ، حتىٰ نبرات صوته تبدلت لزئير نطق:

- «في حاجة يا سيدنا لفندي؟»

جاهدت القيء لأستطيع الرد.

- «مفيش حاجة يا معلم»

نظرت للنادل:

- «فين الحمام؟»
- «ماعندناش، لو هاتطرش اخرج بره»

تذكرت حكمة أمي: "يسلمك يا قفايا يا اللي ما انضربت قلم"، قررت دفع الحساب والبقشيش وسرعة الخروج قبل أن يغلبني القيء، لكن المذيعة منها لله لحقتني باستكمال الخبر:

- «كما تم ضبط 140 كيلو مصارين خنازير في ثلاجة تمهيدًا لفرمهم واستخدامهم في عمل الكفتة المشوية»

لم أتمالك نفسي.

خرجت بثياب ملوثة، يصاحبني سباب الجرسون.



# تفاحة حمراء

يتسلل لأذني موسيقىٰ حفيف ثوب تفاحتي:

- «صباح الخير يا حبيبي»

نغمات صــوتها تأخذني لآفاق تحتضــنني فيها الطبيعة، فأرىٰ ما لا تراه أعين الآخرين.

تطبع قبلة دافئة علىٰ جبيني، يســكنني أريجها الطيب وتنهمر شــلالات مشاعري لتستقر في بحيرتها الصافية، يخرج من أعماقي ضياء يغطي الكون، أعيش في جنتك حبيبتي.

طرقٌ خَفِيفٌ علىٰ باب مكتبي، أعقبه صوتٌ ملائكي ناعم أقرب للهمس:

- «أستأذن في الدخول يا دكتور»

شدني جمال الصوت ورقة نبراته، حركت أذني تجاهها لأراها.

- «أهلًا وسهلًا، تفضلي بالجلوس»
- «أنا فاطمة»

امتزج صوتها بطعم البن، استعذبته.

- «تشربي إيه؟»

تلعثمت خجلة:

- «أشكرك يا دكتور، أنا صائمة»

لون خجل خديها أوصل الدفء إلىٰ إحساسي، تفاحة حمراء اللون أنت إذًا!

دون تردد أشرفت علىٰ رسالة الماجستير الخاصة بها، أصبحنا لا نفترق ورفرف الحب بجناحيه فحل محل الإعجاب.

سافرتُ لبلدتها بصعيد مصر لخطبتها، أخبرني والدها:

- «في عرفنا البنت لابن عمها منذ يوم ولادتها»

لم أستسلم؛ ناقشته، بدا الضيق في نبرات صوته، تأفف بصوت مسموع وهب واقفًا، دس خنجرًا مسمومًا في صدري بقوله:

- «لن أزوج ابنتي لكفيفٍ مهما كان مركزه»

لم أجد ريقًا لأبتلعه.

لم يكن فقداني للبصر اختياريًّا، قلت له وأنا أغادر:

- «قد يرىٰ الكفيف ببصيرته ما يعجز المبصرون عن رؤيته، ليس الأعمىٰ أعمىٰ البصر ولكن الأعمىٰ أعمىٰ البصيرة»

أرعدت السماء، لفظتني ريح طاغية معتمة طريدًا من رحم الجنة، لسحب باردة تأبىٰ أن تنقشع.

- «حمدًا لله علىٰ سلامتك»
- «أين أنا؟»
- «في المشفىٰ»

تتداخل الصور في مخيلتي، تخطيت حاجز الإدراك، أفتقد دفء لون تفاحتي، شحب وضعف شعاعها، لا أشعر بملمسها ولا تراني، أعود للإدراك، صوتي حبيس في حلقي أجاهد لتسمعه.

- «كل ما أريده العودة لجنتك»



ربتٌ برفق علىٰ صدغي:

- «حاول أن تظل منتبهًا، أنت بأمان»

وخز في يدي، فتحت أذني علىٰ أصوات متداخلة:

- «تخطىٰ مرحلة الخطر، نأمل ألا تكون للجلطة بعد إذابتها مضاعفات»

بدأت أستوعب الأمر، ثِقل كئيب يجثم علىٰ صدري يعتصر قلبي، أحاول تحريك أطرافي؛ أفشل.

أغمضت عيني لأستعيدك تفاحتي.

ربتٌ مرة أخرىٰ علىٰ صدغي، وصوت يستحثني أن أنتبه وأكون معهم.

يد أمي تنتشلني من هوة سحيقة، تساعدني لأنزل من فوق الركوبة علىٰ رأس حقلنا، أجلس أمام شيخ الكُتَّاب، وبينما أراجع معه الجزء الثلاثين من القرآن، يشارك الجيران أبي في تنقية القطن من الدودة.

دبيب خطوات أقدام صغيرة تقترب؛ متقافزة، أعقبها صوت اخترق أذني لسقوط جسم في ماء الترعة، سألت الشيخ:

- «هل سقطت أحد في الماء؟»

نظر للترعة وصرخ:

- «حد يلحق البنت الصغيرة؛ هاتغرق»

حضر أبي مهرولًا ومعه بعض الرجال، صاح أحدهم:

- «والله عيب علينا، سبقنا الأعمىٰ وأنقذ البنت!»

توجعني صفة الأعمىٰ التي رافقتني، حتىٰ عند تفوقي يعاير الأهل أولادهم:

- «الأعمىٰ أشطر منكم!»



بطريقة برايل تعلمت وأكملت دراستي، اتجهت للأدب أنهل منه حتىٰ أصبح لقب الأديب والشاعر يلازمني، مثلت بلدي كأستاذ محاضر في كثير من المؤتمرات بأوروبا.

بنيت عالمي الخاص بي، أتخيل الأشياء وأضفي عليها لونها من ملمسها ورائحتها، أعرف الناس من نبراتهم وتهدج أصواتهم، وألتمس الجمال وأستطعمه بحواسي.

وقفت تفاحتي الحمراء أمام والدها وعائلتها، رضخوا لإصرارها، تزوجنا.

أينما ذهبت تصاحبها الجنة، أرىٰ بأعينها فتصبح الدنيا أجمل.

بشرنا الطبيب ببنوتة.

زارنا والداها، سمعته يهمس لزوجته:

- «ربنا يستر والمولودة ماتتولدش عمية!»

تألمت من قوله، كرهت قوة سمعي التي عوضني الله بها عن فقداني للبصر.

رفرفت السعادة علينا، جهزنا كل ما يلزم المولودة.

تعب مفاجئ وآلام شديدة ونزيف أصابا تفاحتي في شهرها السابع، أُدخلت فورًا حجرة العمليات.

القلق يقتلني، أحاول قطع بعض خطوات بطرقة المشفىٰ فأصطدم بالأشياء، أتألم من قلقي علىٰ تفاحتي، صوت صرير باب غرفة العمليات يفتح، كنت أول من وقف أمام الطبيب.

شد علىٰ يدي:

- «البقية في حياتك»

تلاشت رائحة التفاح، عدت أعمىٰ.



# السجين

يصدح عصفور الكناري في قفصه بلحن حزين، الخادم ينظف قفصه الذهبي ويثبت له أرجوحة جديدة.

راقبته يقذف بالكرة ويلتقطها، يلهو تحت المطر، يطارد فراشة زاهية الألوان، يشير إليَّ ويدعوني بصوت مرتفع وصل إليَّ من خلال زجاج النافذة المغلق:

- «تعالىٰ نلعب كورة»

قبل أن أرد عليه، جذبتني أمي للداخل، تكلم المربية:

- «ولاد الشوارع طول اليوم معرضين للبرد والمطر والعفرة، وزي القرود صحتهم كويسة»

انصرفت دون أن تنتظر إجابة المربية التي قالت:

- «ربنا بيدي البرد علىٰ قد الغطاء يا هانم، عالم بأحوال عباده»

أحمل فوق جسدي جبلًا من الملابس الصوفية التي تضعني أمي داخلها، وتغطي رأسي وأذنيَّ بطاقية صوفية؛ فاليوم موعد زيارة طبيب الأسرة والكشف الدوري، خاصة وإنني عطست بالأمس.

مد لي يده بسندويتش كان يقضم منه عندما رآني في يد أمي، سارع السائق وأبعده.

أوصىٰ الطبيب أمي بضرورة تجديد الهواء باستمرار داخل المنزل.

فتحت النافذة، أداعب العصفور، وقف علىٰ يدي؛ أخرجتها من القفص، انطلق بسرعة خارج النافذة، وقف علىٰ رأس الولد، لم يحاول أن يمسك به



ولم يحاول العصــفور الهرب، أخذ يغرد بطريقة لم أســمعها من قبل، يقلد صفير الولد، رفرف بجناحيه عاليًا.

سعدت لحريتهما.

تكلمني أمي:

- «لا تحزن، سأشتري لك عصفورًا غيره»

❊ ❊ ❊



# محاكمة زيوس

صوت يتردد صداه في أُذن كريستينا التي تعد رسالتها في الدراسات العليا في الميثولوجيا الإغريقية.

- «خلصيني»

ظنت أن انكبابها علىٰ أبحاثها جعلها تعيش بين أبطالها، عادت تراجع الملزمة، ثقل جفناها وداعب النوم أعينها، أغلقت الميثولوجيا طامعة في قسط من النوم.

كل أساطير وصور أبطال الميثولوجيا تمر أمامها، المخلوقات الخرافية، زيوس كبير الآلهة الأسطورية وهيراكليس وملاحم هوميروس والإلياذة والأوديسة وحصار طروادة، كلها عبرت سريعًا واختفت إلا صورة سيزيف احتلت عقلها ممسكة بتلابيبه وأبت المغادرة.

عاد الصوت يطن، هذه المرة واضحًا جليًّا.

- «خلصيني»

أمسك الصوت بناصيتها واحتل كل حواسها.

فركت عينيها، اعتدلت جالسة، سألت نفسها: "هل ما سمعته حلم؟".

حاولت أن تنام، أغمضت عينيها، لكن النوم عاندها.

ظلت مغمضة العينين، حتىٰ أخذتها سِنة منه.

- «خلصيني»

الصوت هذه المرة واضح وقريب، سمعت أنفاسًا لاهثة متلاحقة كأنها تخرج من شخص يعدو بكل قوة، إحساس طاغٍ تملكها بوجود أحد ما

بالحجرة، ملأها الخوف، حاولت التكلم، لسانها ملتصق بحلقها، جاهدت حتىٰ نطقت:

- «مَن أنت؟»
- «أنا سيزيف سجين العذاب الأبدي!»

رُوَيْدًا رُوَيْدًا بدت لها صورته واضحة، ممشوق القوام مفتول العضلات عاري الصدر، ينحني من ثِقل صخرةٍ كبيرةٍ يحملها فوق كتفيه، وسامته بادية رغم الآلام الواضحة علىٰ وجهه.

عرفته، هو رمز المكر والدهاء والخديعة في الميثولوجيا، قرأ أفكارها:

- «لا يا سيدتي، ما كُتب عني كله تلفيق وكذب، من كتبوا حرصوا علىٰ ألا يخالفوا الإله زيوس فيغضبوه؛ فكل مقادير الآلهة والبشر في يد هذا العربيد النهم المفتون بنساء الآلهة والبشر»

سكت سيزيف وظهرت علىٰ وجهه علامات الغضب ممزوجة بالحسرة، استجمع فكره:

- «اغتصب زوجتي الجميلة وقتلتها زوجته هيرا، التي كانت لا تجرؤ علىٰ معارضة زوجها في مغامراته النسائية، لكنها تنتقم لنفسها بقتل ضحاياه لأن قلبه مال نحوهن.

كرهتهُ وملأتني الرغبة في الانتقام، راقبته حتىٰ شاهدته يغتصب لايجينا ابنة أسوبوس إله النهر، أخبرت أباها لينقذها ويشكو زيوس في محكمة الآلهة»

سكت يلتقط أنفاسه:

- «تمت تبرئة زيوس واتهامي بإفشاء سرٍ من أسرار الآلهة، ولفقوا لي تهمة سرقة مواشٍ من جاري أوتوليكوس.

سلمني هاديس إله العالم السفلي لإله الموت هرمس (ثاناتوس)، احتار ثاناتوس؛ فلم يكن أجلي قد حان، قرر تقييدي لحين البت في أمري، تحايلت عليه وقيدته وهربت، طاردني آريس إله الحرب وسلمني لزيوس فأصدر حكمه بأن أكون عامل جحيم ورمزًا للعذاب الأبدي في تارتاروس مركز العذاب بالعالم السفلي، وألصق بي هذه الصخرة الثقيلة أصعد بها تلًّا مرتفعًا فتسقط مني متدحرجة؛ فأعاود الصعود بها وتعاود الهبوط، وظللت أنفذ هذا الحكم القاسي من العصر الخامس قبل الميلاد حتىٰ الآن»

هزت كريستينا رأسها بشدة، مدت يدها تتحسس جسدها لتتأكد أن ما تراه ليس حلمًا، سألته:

- «كيف دخلت لعالم الآلهة وحادثتهم وأنت بشر؟»
- «أنا يا سيدتي نصف إله نتيجة لزواج الآلهة بالبشر، وكنت ملكًا علىٰ كورنثوس»
- «كيف أخلصك؟»
- «تنطقين بكلمات مرصودة عليك تخلصينني بها من عذابي الأبدي، هذه الكلمات تعويذة رصدها عليك الإله بروميثيوس خالق البشر ومحبهم، عدو زيوس والمحبوس ظلمًا بالعالم السفلي»
- «ولماذا أنا مخلصتك من دون جميع البشر؟!»
- «أخبرني بروميثيوس أنه في القرن الواحد والعشرين بعد الميلاد ستبلغ فتاة من نسله عامها الخامس والعشرين، وببلوغها هذه السن يكون قد مضىٰ علىٰ عقاب زيوس لي خمس وعشرون قرنًا من



الزمان ويسقط الحكم؛ لكنني لا أستطيع الخلاص إلا بعد ترديدك لكلمات التعويذة»

تعجبت كريستينا مما قاله سيزيف، نظرت إليه مندهشة!

- «كلامك هذا يعني أنني من نسل الإله بروميثيوس»
- «ألم أقل لك إنه كانت هناك زيجات كثيرة بين الآلهة والبشر؟»

علَّم سيزيف كريستينا الكلمات باللغة الإغريقية التي كانت مستخدمة في عصر اليونان العتيق والعصر الكلاسيكي في القرن الرابع والخامس قبل الميلاد، وهي ليست غريبة علىٰ كريستينا التي درست تاريخ الإغريق ولغتهم، رددت كريستينا الكلمات:

"لتصعد روح سيزيف لمكانها، وينضم بسلام لعالم الأموات".

في الصباح قامت كريستينا، مشوشة، مع فنجان القهوة السوداء تأكدت أنها في عالم الإدراك، جلست علىٰ مكتبها، وضعت يدها فوق ملزمة الميثولوجيا، راحت تكتب:

"الأساطير المأساوية تعيش وتستمر لأننا نغذيها بالخيال"، توقفت عن الكتابة فقد لفتت نظرها قطعة صغيرة من صخرة فوق الملزمة، أكملت كتابتها:

"تجب محاكمة زيوس".





# عروس الإله

ردد الجميع نبوءته حتىٰ غنتها البنات: "حان موعد ظهور إله البحر ليقترن بعروس البر".

تحكَّم في كل مفاصل المملكة، جعل المَلِكَ صورةً باهتة، لا يتخذ أية خطوة إلا بموافقته ومباركته، أعينه في كل المملكة تنقل له الأخبار.

لا يحبه أحد والكل يخفي شعوره خشية سطوته؛ فهو المبجل كبير كهان المعبد ووسيط الإله.

لا يحب ولي العهد، أقنع الملك بأن الآلهة نبأته بأنه يُعِدّ لخلعه من العرش، ويبشر بدين جديد يساوي بين العبد وسيده، وفي مجالسه الخاصة يقول بظهور حامل رسالة إله السماء في الصحاري البعيدة.

حبس الملك أخاه وعزله من ولاية العهد.

ذكرىٰ وضعي لمولودي الأول حية في ذهني، ذهبنا ليباركني الكاهن وأضع ولي العهد في أرض المعبد المقدسة.

الأبواق تعلن خروج موكب المبجل من قدس الأقداس، يسير في شموخ خلفه صفان من الكهنة حليقي الرءوس بملابسهم السوداء، يحمل كُلٌّ منهم موقدًا للبخور، تعلقت به الأعين.

جلس علىٰ الأرض في صحن المعبد أمام الملك، فرد أمامه منديلًا به بعض الرمال المقدسة، خط بأصابعه فوقها، أغمض عينيه يقرأ الطالع.



وجم بشـــدة وتغيرت ملامحه، طال صـــمته، مرت الدقائق كأنها دهر، رفع رأســـه ونظر للملك ودموعه تنهمر، ســـجد ومرغ رأســـه في أرض المعبد، يتضرع للآلهة يرجوها تغيير الطالع:

- «يا إلهي، يا رب كل الأرباب، يا من تشرق الشمس بنورك، أسألك أنا خادمك المطيع حامل شعلتك المقدسة ومنفذ مشيئتك، أدعوك أن تكون رحيمًا بأخيك مليكنا المحبوب»

عاد للصمت مطأطئ رأسه لأسفل، وبصوت متهدج يغلب عليه البكاء أفتىٰ:

- «أطال الإله عمر مولاي الملك، ستغادر رحم مولاتي الملكة اليوم أميرة جميلة هي المختارة زوجة لإله البحر»

انزعج الملك، كان ينتظر البشـــارة بقدوم ولي للعهد، وانزعجت أنا؛ فحتمًا ســـيأتي يومًا ينتزع ابنتي من أحضـــاني ليقدمها قربانًا لإله البحر كما حكمت الإلهة.

أمسكت الأفكار السوداء برأسي، أكيد سيتزوج الملك بأخرىٰ ليرزق بوليٍّ للعهد.

انكب الكاهن فوق الأرض طالبًا أن يســـامحه الملك علىٰ ما أخبرته به النجوم، نظر إليَّ بطرف عينيه يطمئنني ونطق:

- «ما زال أمام قدوم أمل المملكة ولي العهد ثمانية عشر عامًا»

امتقع وجه الملك وهب واقفًا، يخشـــىٰ أن يقفز أخوه علىٰ العرش بعد أن يحرره أعوانه، تماسك ليحافظ علىٰ هيبته.

رفع الكاهن رأسه:

- «البشارة يا مولاي»

تهلل وجه الملك وظن أنه سيعود عن فتواه، قال:



- «لن ينازعك في ملكك إنسان، وسيظل رحم مولاتي الملكة غير صالح للغرس إلىٰ أن يحين موعد زِفاف الأميرة الوليدة بزوجها إله البحر، وبأمر أخيك الإله يا مولاي ستعتزل النساء كل النساء، الحرائر والجواري، ولن تتخذ زوجة غير مولاتي الملكة أم الأميرة، وبعد زِفاف الأميرة لإله البحر سيرتوي رحمها ويصبح رَيَّانًا وستحمل ولي العهد»

اقترب المبجل من الملك، وهمس في أذنه:

- «الخطر الآن من أخيك الأمير»

تقهقر الكاهن للخلف بظهره وهو منحنٍ أمام الملك، واستأذنه في البقاء ليبارك المولودة ثم يصطحب القابلة (المولِّدة) لتقوم بتوليد إحدىٰ زوجاته في بيته الملحق بالمعبد.

اشتدت آلام الوضع، قالت لي القابلة تطمئنني:

- «ما تعانينه يا مولاتي طبيعي؛ فأنت بكرية، كنت أتمنىٰ أن أبشرك بأن رحمك يحمل وَلِيًّا للعهد لكن العلامات الظاهرة عليك تشي بأنك تحملين في أميرة، ثم ضحكت وقالت:
- «عندما أخبرت الكاهن بأن علامات الوضع البادية عليك تشي أنك تحملين في أنثىٰ تهلل وجهه، ثم اغتم عندما أخبرته أن زوجته هي أيضًا ستضع أنثىٰ»

رحت أطيع أوامر القابلة وادفع لإخراج المولودة للدنيا.

لا صوت ولا بكاء للمولودة، قلبتها القابلة وخبطت برفق علىٰ مؤخرتها، نظرت إليَّ برعب:

- «الأميرة ولدت ميتة»

مرت كلمات الكاهن الكاذب برأسي: "لا ولي للعهد إلا بعد أن تبلغ المولودة عامها الثامن عشر".

أسعفني التفكير، أمرتُ القابلة بالاقتراب:

- «لو علم جلالة الملك بموت الأميرة سيأمر بإعدامك فورًا»

ظهر الرعب علىٰ وجه القابلة، ثم أكملت حديثي لها:

- «أعلم أنك عين للكاهن، لك أن تحكِّمي عقلك فحياتك هي الثمن، قلت إن زوجة الكاهن تحمل في رحمها أنثىٰ، بدلي جثة ابنتي مع ابنة الكاهن، هذه وسيلتك الوحيدة للنجاة، وسأكافئك بمال كثير بعد أن تتمي ما اتفقنا عليه، وأحذرك أن يعلم الكاهن بما دار بيننا»

أعلنت القابلة أن ولادتي ما زالت أمامها ساعات، وأنها سترافق الكاهن لتقوم بتوليد زوجته أولًا.

نفذت ما اتفقنا عليه، كان لا بد من أن يموت معها السر.

أفقت من ذكرياتي فقد مرت الأعوام وحان يوم التضحية، في المعبد استسلمت الأميرة للطقوس، هي تؤمن منذ ولادتها أن يوم زِفافها علىٰ الحوت الإله آتٍ، بدت كأجمل عروس في ليلة زِفافها، خدرت ووضعت في المركب الملكي تحيطها الزهور وأواني البخور المخلوطة في هدوء، ليلًا وعلىٰ ضوء المشاعل وقفت والملك نراقب مشهد الكهنة يسحبون بمراكبهم مركب الأميرة، خلفهم مركب صغير يتسلل في الظلام يقوده ضابطٌ يحبها.

❋ ❋ ❋



# العذراء

أخرِجُ متعلقاتي، أرتبها؛ فهذا يومي الأول كطبيب بالوحدة الصحية لإحدىٰ القرىٰ النائية في صعيد مصر الجواني.

لم تكن قد مرت علىٰ وجودي أكثر من ساعة بعد استلام الوحدة من الطبيب الذي انتهت مدة تكليفه.

يخبرني التومرجي بأن خفير العمدة الخصوصي جاء ليصحبني لتوقيع الكشف الطبي علىٰ مريض.

في الطريق أخذت أعد نفسي للمقابلة، فلا بد من ظهوري بمظهر الواثق بنفسه، هذه المقابلة قد تؤثر علىٰ فترة وجودي بالبلدة، وأكيد أن الحظ خدمني ليكون أول تعامل لي بالبلدة مع عمدتها.

سلمني الخفير علىٰ باب دوار العمدة الخارجي لخفير سلمني بدوره لحضرة العمدة.

لفت نظري كم الخفراء وكلهم يحملون بنادقهم علىٰ أكتافهم وقد بدوا لي متماثلين في الشكل واللون الأسمر الشارب من الشمس والقوة الجسمانية، وعمامة فوق الرأس، وشارب يغطي نصف وجههم الأسفل.

كان العمدة يجلس وحده، لم أرتح لتعبير وجهه الممتقع والمتجهم.

عابس حاد النظرات، أشار للخفير بالانصراف.

رحب بي بكلمات مقتضبة، أمرني بالجلوس، سألني عن اسمي ثم قال بصوت خفيض:

- «يا دكتور عصام استدعيتك لتوقيع الكشف علىٰ ابنتي وتحديد عذرتيها»



ألجمتني المفاجأة التي لم أكن مستعدًا لها، الرجل صدمني بالخبر مباشرة وكأنه هوىٰ علىٰ أم رأسي بحجر كبير.

تعمدت أن أكون رابط الجأش.

لذت بالصمت، أيقظني العمدة من سُبات فكري وهو ينادي علىٰ زوجته، وقال لي بصوت آمر وهو ينظر في عيني:

- «ما يحدث في الدوار وما ستراه يا دكتور سر نأتمنك عليه، تذكر أننا صعايدة، هذا الموضع هو قمة العار، وإفشاؤه يعني الموت»

تطرق بنظره للأرض.

تعاركت الأفكار في عقلي، هذا الموضوع لا ناقة لي فيه ولا جمل، تهديده جعلني مذبذب الفكر، لوهلة فكرت أن أحتج وأنسحب، شعرت مع صمته بثقل الحمل الذي يفوق كاهله وأنني أصبحت شريكًا معه في ما يحمله، فضلت الانصياع.

صحبتني زوجته لحجرة داخلية مظلمة، أضاءت نور الحجرة.

فتاة في العشرين من عمرها ملقاة في ركن الحجرة، تبدو عليها آثار ضرب وتعذيب، أغلقت الأم الباب وأخبرتها:

- «دكتور الوحدة الصحية جاي يكشف عليكِ».

نظرت الفتاة لأمها في استرحام.

رأيت الشفقة في عين أمها ثم فجأة احتضنت ابنتها وبكت.

ابتلعت ريقي وبصوت متهدج وجهت حديثي للفتاة:

- «أنا الدكتور عصام دكتور الوحدة الجديد»

نظرت لأمها وقالت:

- «هتعرِّيني وتهتكي ستري قدام راجل غريب؟»



- «أبوكِ حالف يتاويكي، لو الدكتور قال إنك مش بنت بنوت»

بتحدٍّ نظرت الفتاة إليَّ، قالت:

- «ماعنديش ما أخسـره أكثر من عمري، يا دكتور، أنا متجوزة عرفي بزميل في الجامعة، يعني مش عذراء»

شهقت الأم ولطمتها علىٰ وجهها، وقالت:

- «جلبت لينا العار يا فاجرة، أنا اللي ها أقتلك بإيدي بدل ما يروح الرجال في داهية بسببك»

ثم انخرطت في البكاء والنحيب.

استمرت الابنة في توجيه حديثها إليَّ بنفس نبرة التحدي:

- «فيه فرصـة إن جوازي من زميلي يتحول لرسـمي، لكن لو أبويا عرف إني مش بنت بنوت هيقتلني قبل ما تخرج انت من الدوار، هاندبح يا دكتور زي البهيمة، وانت ما دام عرفت السـر أكيد مش هتخرج من هنا حي»

كانت كلماتها صفعات علىٰ عقلي، شُل تفكيري، دارت الحجرة بي، وكدت أن أسقط، استندت إلىٰ الجدار.

نظرت لأمها بمذلة واستعطاف وقالت:

- «استري عليَّ يا أمي»

لم أنطق، توجهت مع أمها للباب، للقاء العمدة.

في القطار المتجه إلىٰ القاهرة فجر اليوم التالي كنت جالسًا.

❊ ❊ ❊



# أرض البشعة

مصلوب بإحكام بجذع نخلة يستخدم لربط الدواب، مجرد من ثيابي إلا من سروال قديم مهترئ، يتجمع الذباب حول روث الدواب ينهل منه ثم يستريح فوق جسدي ليلعق من آثار دمائي.

في المساء أكون وليمة للبعوض، يلدغني باحثًا عن دماء يمتصها فلا يجد، هربت دمائي من سطح جلدي بفعل الصقيع، وما تبقىٰ بعد النزيف هرب للداخل عله يجد الدفء.

ثلاثة أيام وأنا مصلوب دون طعام أو شراب، كلهم يعرفون أنني لست بسارق، لم يعد مظهري يثير شفقتهم أو استغرابهم، اعتادوا رؤيتي مربوطًا مع الدواب كما يعتادون القبح.

الوحيد الذي لازمني، كلب ضعيف كنت أعطف عليه وأقاسمه لقيمات.

العطش يقتلني.

يتمسح الكلب بقدمي، رقت سيدة لحالي، اقتربت لتسقيني، أبعدوها.

بكت، رفعت رأسها ويديها تشكوهم للسماء:

- «جبابرة ظلمة جلبتم اللعنة للقرية، عثتم في الأرض فسادًا، النار مثواكم»

أطل عليَّ وجه أمي تناديني وأنا أمرح بين الحقول الخضراء، أستنشق رحيق زهور البرتقال وأداعب الماء الصافي الرقراق المنساب في المجاري:

- «بطل لعب، الشمس حامية، تعال لأسقيك»

من بداية نوبة حراستي علىٰ المخازن يداهمني شعور لا يريحني لا أعرف له سببًا، زاد كآبة وغموضًا الليلة اختفاء القمر والنجوم من السماء، الأدخنة



والسحابة السوداء المتصاعدة نتيجة حرق الأهالي للقش تجعل تنفسي صعبًا.

هي ليلة من ليالي بلدتنا التي جف زرعها وعطن ماؤها.

اتحد نقيق الضفادع مع صوت صرصور الغيط في طنين مزعج وكأنه قرع لطبول الحرب، فروع الشجر اليابسة المتدلية تبدو كرءوس الشياطين، انقبضت وتسلل الخوف لقلبي.

أبحث عن بعض الحطب لأشعله لتبديد الظلمة الحالكة ولأجلب بعض الدفء.

ضربة شديدة علىٰ رأسي أفقدتني الوعي.

أفقت علىٰ صوت عربة نقل تغادر المكان محملة بما تم نهبه، عرفت أحدهم، هو أحد الشركاء في ملكية المخازن.

في الصباح عثروا علىٰ مصاب، كنت كبش الفداء والسارق، ارتاح الشركاء لتوجيه الاتهام إليَّ!

نصبوا من أنفسهم محققين وقضاة ومنفذين للأحكام، كان قرارهم تعريضي لاختبار البشعة.

تركوني أكثر من يومين دون طعام أو ماء، جفت سوائل جسدي وصار حلقي جافًا لا ريق فيه، أكيد ستلتصق البشعة بلساني فتُثبت التهمة علي.

أشعل "اَلْمُبَشِّع" موقد النار بجواري ودس البشعة بين الجمر المشتعل، تسلل بعض الدفء لجسدي، جاهدت حتىٰ فتحت عيني، صدمني ضوء النهار فعدت لإغلاقهما.

يتفق الشريك بجواري مع المبشِّع:

- «سنجزل لك العطاء، بعد أن تثبت عليه التهمة»

اجتمع الناس للفرجة.
طالبني المبشِّع بالاعتراف، أكدت براءتي.
تحول لون البشعة للون الأحمر، صارة كقطعة من جمر جهنم.
أعاد عليَّ السؤال:

- «اعترف تنجو، انت عارف، لو بتكذب النار هتحرق لسانك»

جاهدت للنجاة، حاولت الاعتراف بما لم أقترفه، ضعف صوتي جعله لا يغادر حلقي.
بصعوبة رفعت نظري للسماء أستنجد بالخالق، وجدتها حزينة ملبدة بالغيوم السوداء، لا أعرف كيف واتتني القوة لأرتجف.
يقترب بالبشعة[1] من وجهي، صهدها يحرقني.
نقطة ماء باردة نزلت علىٰ رأس أعقبها نقاط، انفطرت السماء حزينة، أتاني صوت أمي:

- «يا ولدي قلتك افتح بقك أسقيك»

تساقط الماء من فمي فوق البشعة خرج صوتها مُحْتَجًّا (طش).
عاد الكلب يتمسح بقدمي.

❊ ❊ ❊

(1) اَلْبَشِعَة طريقة تستخدمها بعض القبائل للحكم علىٰ براءة أو إدانة متهم..



# بين قعدتين

واحدة هاي لايف،

والثانية كحيتي.

وسط البذخ والترف جمعتني الصدفة لجلسة بين صفوة القوم، من الباشوات والبهوات.

تداخلت رائحة البرفانات المتعددة مع رائحة السيجار فأفسدت بعضها، تمنيت بعض الهواء النقي.

قدمت لنا الشاي في طقم فاخر شابة ملامحها الآسيوية.

تطرق الحديث للأعمال والموضة والكافيار وأمراض العصر من ضغط وسكر، ثم انحدر بعد أن دارت الكاسات لأخبار الراقصات.

في يوم بارد ممطر؛ تعطلت بنا العربة أنا وأحد أصدقائي في منطقة نائية، لمحنا بعض أكوام الخشب ومواد البناء، اقتربنا فسمعنا صوتًا جميلًا يغني:

- «يا برتقان يا أبو دمه، الولا خطب بنت عمه، جه علىٰ عرضه ولمه، يا حبيبي»

خفير حراسة بجوار عشة بناها من الخشب وأكياس البلاستيك، وأمامه راكية نار.

قبل أن نلقي السلام أتانا صوته:

- «مرحب بالبهوات، اتفضلوا»

جلسنا بجواره علىٰ الأحجار، حول النار، وضع علبة صفيح (كأبريق للشاي) يدها من سلك ملفوف ومجدول، يكسوها لون الهباب الأسود، لقم



الشاي وتركه يغلي ثم أضاف عليه السكر وهو يغلي، ملأت رائحة الشاي الزكي أنوفنا، صبه وقدمه لنا.

حديثه أدخل الدفء لأوصالنا، شربنا أكثر من كوب، رفض أن يتناول منا السجائر، تعلل بأنه يدخن الجوزة.

أخرج الرجل الجوزة، صنعها من علبة صفيح وفوقها مثبت حجر يرص فوقه المعسل (التبغ) والفحم، دار بيننا الحديث عن الغربة بعيدًا عن الأهل والأحباب، ولقمة العيش، وجدناه راضيًا حامدًا لربه.

سألته عن الصحة ومن يخدمه في هذه البقعة البعيدة عن العمران، قال:

- «الصحة بمب والحمد لله، أخدم نفسي بنفسي»

ثم أردف:

- «الاتكال علىٰ حمارك خير من الاتكال علىٰ حصان جارك»

تمنيت أن تطول القعدة؛ فقد انعكس شعور الرجل بالرضىٰ علينا.

أتت سيارة لتقلنا.. شكرته، مددت يدي ببعض النقود، ردها وظهر الحزن علىٰ وجهه.

- «بتشتمني يا بيه، انتم ضيوفي»

بعد كل هذه السنين ما زال طعم شاي الرجل في حلقي.

❊ ❊ ❊



# بدلة حسن

تعمدت جذب انتباه سـكان الحارة بصـوت نفير سـيارتي الفارهة، بعض الصبية تجمعوا حولي.

قذفت إليهم بعض البنبون والعملات المعدنية، انحنوا لالتقاط ما ألقيته.

عكر سـعادتي صـبي لم ينحنِ، انصـرف دون أن ينظر تجاهي، أفسـد عليَّ اللحظة، تمنيت لو عاد فأجزل له العطاء وأرىٰ الشكر في عينيه.

روائح مختلفة تغلب عليها رائحة طهي الطعام تتسـلل لأنفي، كنت أُغالب جوعي كلما شممتها، لم يكن لي أن أجهر بالجوع.

عرفني بعض الكبار فقد قضيت بينهم سنين، أسرفوا في الترحيب بي، أبعدوا الأطفال عن السيارة.

سألت عن بيت خالي.

- «أنت نسـيت البيت يا سـعادة البيه الدكتور، البيت في مكانه آخر الحارة»

ركنت السيارة أسفل المنزل.

يا ترىٰ ما شـكله الآن؟ صـورته وأنا منكب علىٰ يده أقبلها، وحسـن يرفع متعلقاتي بسـيارة الأجرة التي سـتقلني للمطار ماثلة أمامي، كلماته وهو يقبل رأسي حية:

- «أنا مش خالك بس، انت ابني زي حسـن تمام، أمك أختي وأبوك ابن عمي»

ثم دعا لي بالخير.



طول رحلتي في الغربة التي طالت خمسة عشر عامًا، وأنا أتلمس أخبارهم، لا يمر يوم إلا وأطيافهم تؤرقني وتسيطر علىٰ عقلي.

من صغرىٰ، أعاني الحرمان، والداي يعملان أجيرين عند الغير، يأتون آخر اليوم وقد بلغ منهما التعب، نتناول الطعام ويسارعون في الخلود للنوم، لا حديث بيننا.

كمْ عوقبت من مدرس الفصل لشرودي الدائم، وكثرة شجاري مع الأطفال، أستمتع بإثارة مشاعر الغضب لدىٰ الجميع، أبي يعاقبني بقسوة، دون أن يسأل عن سبب تصرفاتي، يريح رأسه فيعزلني في إحدىٰ حجرات المنزل يقتلني الخوف والفزع، والبكاء محرم عليَّ فلا يصح البكاء للرجال.

مات أبي ولحقت به أمي، انتقلت للعيش في بيت خالي في المدينة.

كنت دائمًا خلف حسن، أطأطئ رأسي خجلًا وأنا أطلب مصاريف الدراسة، فيحتضنني ويقبل رأسي، كمْ تمنيت أن يعنفني عندما أخطئ كما يعنف حسن.

سيطر عليَّ الشعور بالدونية، لست بصاحب بيت، كنت أدخر دموعي لبعد صعودي لحجرتي بسطح البيت، أبكي من الخوف ومن يُتْمِي واشتياقي لحضن أمي ولقسوة أبي.

أقوم مذعورًا من كوابيسي، أسارع بتبديل وغسيل ملابسي التي تبولت فيها، كثيرًا ما ارتديتها مبتلة لعدم وجود غيار بديل بالحجرة.

زوجة خالي تعطيني ملابس حسن بعد أن تعيد حياكتها لتناسبني، لم يكن لي مطلب خاص قط.



انكفأت علىٰ ذاتي أنهل من كتب الدراسة، تفوقت، لم يبخل خالي بمصاريف كلية الطب، حسن سبقني بسنة والتحق بكلية التجارة، شعرت ببعض التعويض.

في الغربة أصنع حوارًا بيني وبينهم، أتباهىٰ عليهم بوضعي الحالي، أسعد بالانكسار في أعينهم؛ وخجلهم عندما تتلاقىٰ أعيننا، أنا لا أكرههم لكني أشتاق إلىٰ أن ينحنوا أمامي.

فتحت باب السيارة، مددت قدمي، أستعرض حذائي الفاخر اللامع ماركة بيروتي المصنوع يدويًّا في فرنسا، وقفت منتصبًا في شموخ أمام المنزل القديم الذي شهد سنوات ضعفي وفقري، نظرت لأعلىٰ لسطح المسكن حيث قضيت سنوات عمري وحيدًا، كمْ تمنيت أن أملك مفتاحًا مثل حسن.

نفس العفريت الصغير الذي لم ينحن ليلتقط البنبون يطل من سطح المنزل يسقي أَصِيصًا للزرع، سقطت قطرات من الماء علىٰ السيارة، سارع أحد الرجال بزجره ثم قال:

- «ابن حسن مجننا بشقاوته»

رحب بي، لم يسألني عن سبب انقطاعي عن السؤال عنهم من يوم سفري.

فوق مائدة الطعام وضعت زوجة خالي أمامي فوطة وشوكة وسكين، شعرت بتميزي، رحت أستعرض بدلتي الأنيقة أمام حسن وأتعمد مسك رابطة العنق وكأنني أُعدل وضعها، قال خالي:

- «علِمنا أنك تزوجت في الغربة بزوجة غنية»

متباهيًا:



- «عرفتها وأنا أكمل دراستي العليا، كانت تملك مشفىٰ، تزوجتها، وصار المشفىٰ ملكًا لي»
- «أهلا بكما في بيتنا المتواضع، مشاهدتنا بتفكرك بأيام تسعىٰ لنسيانها»

يا لهذا الرجل، اخترق عقلي وحلل ما يدور بخلدي.

سرعان ما تفوق شعوري بالتعالي علىٰ إحساسي بالخجل، تماسكت ونظرت بثبات في عينيه.

أشرت للعفريت الصغير بمفتاح السيارة الموضوع في سلسلة من الذهب.

- «تعرف تفتح السيارة»
- «أيوه»
- «في الشنطة بعض الهدايا لكم وبدلة جديدة تليق بوالدك»

أشار خالي لحفيده، فلم يمد يده، قال خالي:

- «زوجة خالك جهزت لك من الطعام ما كنت تحبه وسيضعه ابن حسن في العربة ويأتي بالهدايا»

عدت من الزيارة وكأنني لم أسافر وأعتلي المناصب.

وصلت بيتي وأنا أتخيل حسن يرتدي البدلة الجديدة.

أمرت الخادمة الأجنبية بأن تحضر لي ما بداخل حقيبة السيارة.

أحضرت الطعام الذي جهزته لي زوجة خالي، وبدلة حسن والهدايا.

❊ ❊ ❊



# لحظة فارقة

- «قم معنا»

حانت إذًا اللحظة، فرائصي ترتعد، أشعر ببوادر فقداني للوعي، ساعدوني علىٰ القيام والسير.

ضاحكًا مقهقهًا تجرأت وخرجت من عباءتي.

- «لُذ بي فأنجيك»

تماسكت:

- «لا.. تحررت منك وهزمتك»

شامت بي، يتردد صدىٰ صوته الكريه؛ كأن الدنيا خالية إلا منه، تلازمه نفس النظرة اللعينة التي يأتيني بها في كوابيسي، يحملني لارتفاع شاهق ويتركني أسقط، وسط بئر مظلمة لا نهاية لها، استغيث به، فينقذني.

- «هذه المرة في نهاية البئر الحالكة السواد نقطة مضيئة، بددت ظلامك، فشلت أن تحجبها عني»

يسارع عم شبل البقال لينقذني من الزفة اليومية من رفقائي بالمدرسة يرددون خلف ابن العمدة:

- «الممسوخ أهوه، الممسوخ أهوه»

يعفرون رأسي بالتراب.

قلبي الصغير لا يحتمل، أبكي بشدة، ينفض الرجل الطيب عني التراب، يقول لأمي وهي تحتضنني باكية:

- «كرامة له أبقيه في المنزل»

هربت بي من القرية، وحرصت علىٰ تعليمي حتىٰ صرت مهندسًا ناجحًا، أجريت أكثر من عملية وعدت بوجه جديد.

يحثني بإصرار والغيظ يكسو وجهه:

- «عد إليَّ لتنجو»

- «اذهب عني واتركني لمصيري»
- «لن يضيع ما بذلته من جهد، هذه اللحظة لن أفوتها؛ طاوعني لتخلد معي»
- «هزمتك بتوبتي»

قهقه ضاحكًا بصوت رفيع أقرب لفحيح الأفعىٰ:

- «توبتك غير مقبولة؛ قتلت نفسًا بغير نفس، كأنك قتلت الناس جميعًا»
- «التوبة بيني وبين خالقي، لم أعد تابعًا لك، أنت واتباعك وعدتم بالخلود في النار»

عادت نظرة الكراهية التي تكون في أوجها وهو يرافقني، كلما هممت بدخول دار العبادة.

كانت غوايتي سهلة؛ لحنقي علىٰ الناس وضعف إيماني.

سألته:

- «لم لا ترافقني عندما أرتاد أماكن اللهو والعربدة؟»
- «مهمتي إيصالك هناك، لا حاجة لي بالدخول، كل من بالداخل جنود لي»

يمسك بأذني:

- «مركزك الآن مرموق، تملك سلاح المال، ولم تعد مسخًا، لم لا تنتقم لنفسك ممن أذلوك»

داس علىٰ وجيعة كنت أظنها ماتت.

ورث العمودية عن أبيه، ذهبت بسيارتي الفارهة يقودها سائقي الخاص، قام مرحبًا، لم يعرفني ولم يلفت اسمي انتباهه، قدمت له نفسي، تباهيت بمركزي وما أملك، طلبت يد أخته لتكون زوجتي.

صمتَ لحظة، رأيتُك تدخل إليه تطل من عينيه؛ فعادت إليه نفس النظرات التي كنت أراها ونحن صغار، تأكدت أنك كنت المحرض، وسوَسْتَ له.



هب واقفًا والشرر يتطاير من نظراته: "انت يا ممسوخ عايز تناسبني، نسيت نفسك؟"

نادىٰ علىٰ الخفر ليلقوني خارج الدوار.

سكب في جَرحي الذي لم يندمل الملح.

تقمَّصْتَني، حرَّكْتَ يدي، صوَّبْتَ مسدسي نحو قلبه، نحن الاثنان ضحاياك»

- «هذه اللحظة فارقة ولن أضيعها، عد إليَّ فتنجو»

تعجب من يسندونني من قهقهتي.

تضاءل.

وضعوا قناعًا أسود فوق رأسي، أمي تلبسني مريلة سوداء مثبت فيها حجاب لمنع الحسد، جارتنا ضاحكة:

- «القرد في عين أمه غزال»

أنفاســي تبتعد والهواء لا يعرف طريقه لصــدري، روحي تائهة بين الســماء والأرض.

هياجه ذهب بألم الحبل حول عنقي، صرخ من بسمتي.





# خبيئة القدر

ينادي عليَّ زوجي:

- «لبِّسي مريم تقيل؛ الجو بارد»

حان اليوم الذي أخشاه.

منذ نفذ سهم الخبر المشئوم داخل بيتنا، كسا قلوبنا ألمًا صامتًا وحزنًا دفينًا.

رغم الصدمة يحاول التماسك، ينتزع نفسه من شروده، يضع بسمة باهتة علىٰ وجهه، لم تفتر همته وما زال يعطي ابنتنا نفس الحب.

ببسمته التي يحاول نحتها علىٰ وجهه يسرِّي عني، تلاقت أعيننا، خفضت عيني خجلة، رفع رأسي بيده ونظر في عيني وقال:

- «ما حدث لا ذنب لك فيه، هي إرادة الله»

ترددت أن أرتمي كعادتي في حضن حماتي، سعت هي إليَّ، احتضنني، دفء مشاعرها طمأنني، يا الله كنت في حاجة لهذه الجرعة الصادقة من الحنان، قالت:

- «ناوليني حفيدتي»

حملتها وراحت تقرأ المعوذتين وترقيها، قبلتها، أعرف أن بداخلها حزنًا لا يوصف وأنها تحتجز دموعها داخلها حتىٰ لا تؤلمني، نظرت في عينيها ودمعي يسيل علىٰ خدي، بكت ونزلت دموعها المحتجزة كشلال، اختلطت دموعنا.



فلذة كبدي تبتسم لي بوجهها الملائكي أمسح بيد مرتجفة علىٰ رأسها، لا أعلم ما يخبئه لنا القدر، يا إلهي هل سيسقط معبدي؟ لم أعد أحتمل هذا التشتت المؤلم، ما نمرُ به كابوس ثقيل، ساعدني يا الله.

تدور في رأسي أسئلة أبحث عن إجابات لها: كيف سيحل الشرع هذه المعضلة؟

ابنتي من نطفة رجل غريب، كيف سينظر لي المجتمع، وكيف تستقيم الحياة مستقبلًا بمريم، وأبوها غريب عن أمها، كيف يا ربي كيف؟ أكاد أجن.

احتضنني، أشعر بما يعانيه بللت دموعي صدره، يتماسك، أخذ ابنتنا، ضمها برفق لصدره وطبع علىٰ جبينها قبلة، مدت يدها تداعب وجهه، فضحته مشاعره، انهمرت دموعه.

شريط الذكريات يستعرض نفسه داخل رأسي.

نتائج الفحص المعملي لسائل زوجي المنوي أثبتت صعوبة الحمل بالطريقة الطبيعية، الحل في التلقيح الصناعي، لا يوجد مانع شرعي، الحيوان المنوي الذي ستلقح به بويضتي من زوجي.

أثبتت أشعة السونار بأنني حامل ببنوتة.

أسميناها مريم تيمنًا بالسيدة العذراء، كانت قرة عين لنا نسهر نمرِّضها، نراقب سِنًّا تنمو في فمها، نسعد بأول كلماتها (ببا مما)، وكم شبهتها حماتي بجدها لأبيها.

منحتنا السعادة، كم دعونا الله أن يطيل أعمارنا حتىٰ نراها تتأبط ذراع عريسها.



في ذلك اليوم المشئوم استيقظت من نومي يسيطر عليَّ إحساس بالقلق.

تنبهت علىٰ استقبال زوجي لضيف طعننا بقوله:

- «طفلتكم ابنتي! حدث خلط في معمل التلقيح بين العينات، نطفتك زرعت بالخطأ في رحم زوجتي، ونطفتي زرعت في رحم زوجتك»

ثم استطرد:

- «سافرنا للعمل بالخارج، لون بشرة ابنتنا جعل الشك يساورني في وجود خلط للعينات بالمعمل، خضعنا لفحص الدي إن إيه (DNA)، أثبتت النتيجة أن من أنجبتها زوجتي ليست من صلبي، عدنا مسرعين للوطن ورفعت قضية علىٰ مركز التخصيب، وبفحص سجلاتهم ثبت أنه أجريت عمليتان فقط للتلقيح في نفس اليوم وأنكم كنتم العملية الثانية»

كان الرجل مهذبًا، حاول أن يخفف عنَّا، قال:

- «أشعر بصدمتكم فقد مررت بها من قبل»

وطلب خضوعنا للفحص المعملي، استجمع زوجي نفسه وسأله:

- «هل يمكن أن نرىٰ الطفلة التي أنجبتها زوجتك؟»

أطرق الرجل برأسه، قال:

- «منذ ولادتها وهي مريضة وتخضع للعلاج»

ثم ابتلع ريقه وعاد ينظر للأرض، يغالب دموعه:

- «توفاها الله بالمستشفىٰ قبل عودتنا»

أخرج شهادة الوفاة وصورة للبنت.



أمسك زوجي الصورة، نظرت في وجهه، أرىٰ تقاطيع وجهه تختلج، ناولني الصورة، أخذت أبكي إلىٰ أن انهرت وسقطت مغشيًا علي.

أثبتت نتيجة التحليل أن ابنتي من صلب الرجل الغريب عني.

أعلن الحاجب بدء الجلسة.

استعد القاضي للنطق بالحكم.

❊ ❊ ❊



# قلب الأم

ثقلت المسئولية برحيل شريك الحياة، بنتين وولد، في مراحل التعليم، من ظهر رجل واحد لكنهم مختلفون في الطبائع.

تقسو على الكبرى لتروِّضها وتضعها على الطريق الصحيح.

الصغرى تخبرها:

- «أختي تزوجت عرفيًّا بزميلها بالجامعة»

ألجمتها الصدمة، صرخت، طالبتها بالعقد العرفي، ردت عليها باستهتار:

- «كان العقد شفهيًّا»

مادت الأرض تحت أقدامها، أفاقت من هول صدمتها، جرتها من شعرها، لطمتها، خرج صوتها أنينًا:

- «لا نملك إلا شرفنا، وضعتِ رأسنا في الطين، لن تقف الفضيحة عندك، ستشملنا كلنا، منك لله»

نادت ابنها:

- «أنت الآن رجل البيت، راقب سلوك أختيك، قومهما إذا لزم الأمر»

أغلقت حزنها على نفسها، لم تشعر برحيل زوجها وحاجتها إليه كما تشعر الآن.

ضيق الخناق على أختيه، أغدقت عليه الكبرى المال، هربا من المنزل معًا.

الناس لا يرحمون.. الابنة الصغرى لم تحتمل معايرتهم لها بسلوك أختها، تركت دراستها، ذبلت ولم تفلح الأم في التسرية عنها.



نشرت الصحف عن قتل قواد لشبكة دعارة والقبض علىٰ باقي أفراد الشبكة، القتيل ابنها واسم ابنتها ضمن المقبوض عليهم.

وقفت أمام المحكمة تنتظر سيارة الترحيلات، هبطت الابنة والقيد الحديدي يربطها بأخرىٰ، هالها منظرها وملابسها الرثة، دموعها جعلت رجال الشرطة يفسحون لها الطريق، أخذت ابنتها في حِضنها.

سقطت الابنة مضرجة في دمائها.





# استراحة

كلاب مسعورة تنبح داخلَ عقلي، أرخيتُ رابطةَ عنقي لعل الهواء يدخل بحرية لصدري.

هربت من مشكلات العمل، تحركتُ بالعربةِ دونَ هدىٰ.

لا مهرب، فلا بد من العودة للبيت.

أمر يَوْمِيًّا بمنزلٍ قديمٍ من دورٍ واحدٍ، يفترش الأرض أمامه بعضُ الرجالِ والنساءِ حول طبلية يتناولون وجبة العشاء، وحولهم الأولادُ يمرحون، صوت ضحكاتهم يدل علىٰ الرضىٰ، قفز أمامي وجهُ زوجتي متجهمةً تحملُ داخلَها عبئًا كبيرًا وتنتظرُ عودتي لتفرغَ شحنَتَها وتبدأُ المطالبُ وقد نصل للمشاحنات.

- «حاسب»

ضغطتُ بشدةٍ علىٰ مكابحِ السيارة، تداخلَت مع صوتها صرخة طفلٍ، قبل أن أنزل من السيارة كانت أمهُ تحتضنهُ، قالت:

- «بسيطة والحمد لله»

ركنت السيارة، ذهبت لأطمئن، أخرجتُ محفظتي، أمسك أحد الرجال بيدي منعني من فتحها، قال:

- «عيب يا بيه، اتكل علىٰ الله»

وجوههم طيبة كأنهم خاصموا هموم الدنيا وتصالحوا مع أنفسهم.

رائحة الجبن القديم علىٰ الطبلية اخترقت أنفي، ذكرتني بدارنا في القرية وجدتي تضيف إليها بعضَ الزيتِ وتضعها أمام جدي مع



بعـض الطمـاطمِ وأعـوادِ مـن الشـيكوريا والجرجير والجعضيض، ابتلعتُ ريقي.

كأنها قرأت أفكاري:

- «اتفضل معانا لقمة عيش وملح يا بيه»

شكرتها وانصرفت.

يزعجني صـريرُ البابِ الحديدي لمسـكنِي، يذكرُني بصـوت بابِ المعتقلِ عندما يفتحُهُ الحارسُ ليحشرَنا داخلَ الزنازين بعد ساعةِ التريضِ.

استقبلتْنِي زوجتي مرحبة تحاول رسم بسمة علىٰ وجهها، ارتميت علىٰ أول مقعد صادفني، أشعلتُ سيجارة وأخذتُ نفسًا عميقًا وأخرجتُهُ ببطء.

هربت للماضـي، محمولًا فوق الأكتافِ أهتف، وفي المعتقل نردد كلمات صـلاح جاهين والفاجومي وغناء الشـيخ إمامٍ: "الليل الليل الليل وعجين الفلاحة بالحيل والويل الويل الويل لو هزيت الديل".

نحيتُ (الترنج سوت) الذي أتت به زوجتي، ارتديت جلبابًا منزليًّا مريحًا.

بدأتْ زوجتي تتكلمُ، ترفضُ أذني اسـتقبالَ كلماتِها، تعافر بعض الكلمات فتدخل لسمعي:

- «جهاز البنت، موعد الفرح، ابنك يحتاج نقودًا، البيت ينقصه الكثير»

جدرانُ بيتي الصماءُ بألوانها القاتمةِ تطبقُ علىٰ نفسي، ألتقطُ أنفاسي بصعوبةٍ ويتصببُ عرقي، تسللتُ خارجًا بجلبابِ البيت.

قامَ الرجالُ لاستقبالي:



- «اتفضل يا بيه»

جلست أرضًا بينهم، أحضرت لي طبق جبنة قديمة غارقة في الزيت والطحينة وبعض أعواد الجرجير، أكلت بشهية، رحت أرتشف من كوب الشاي بتلذذ، وأحدثهم عن تراكم البضائع بالمخازن وإغراق السوق بالبضائع الأجنبية.

❊ ❊ ❊



# صيحات السكارى

لم تتذوق طعم الراحة منذ استقدام ابنتها للعيش معها.

يحتفلون بانتصارهم على الفتى، دارت الكاسات وتعالت صيحاتهم وأهازيجهم.

أعين العشيقة زائغة أعماها الغضب، بجوار الحاكم تنتظر المصير، قلبه مال عنها... تجاه ابنتها.

مفتيه لديه كل الحلول، أفتى الفتى أن زواجها بالحاكم بعد قتله لزوجها لا يجوز.

خالفه وأفتى بشرعية الزواج.

تراقب الحاكم يميل على أذن مفتي القصر، تعلم أنه سيلوي عنق الشرع ويفتي بزواج الحاكم بابنتها بعد طلاقها.

أعدت عدتها لتسبق خطواتهما.

دخلت الفتاة، ملابسها زاهية شفافة تنحصر عن نصفها العلوي، امتزج لون ردائها بلون بشرتها الخمري، تغطي كتفيها برداءٍ حريريٍّ أسود، يداعب الهواء خصلات شعرها الغجري الفاحم المنسدل خلف ظهرها يبعثره، بدت كلوحة رسمها فنان مجنون.

أنوثتها الطاغية أطارت لبهم.

التقت عين الساقي عيني العشيقة، أومأت له بهزة خفيفة من رأسها، قدم للفتاة كأسها، تجرعت بلذة النصر رشفات الخمر.



لعب الخمر برأسه وسال لعابه، وقف مترنحًا، أشار إلىٰ الفتاة:

- «ارقصي وغني لنا»

ردت في دلال:

- «لا رغبة لي في الرقص»

في جوفها لهيب يكفي لحرق الجميع، أحبت الفتىٰ بجنون، عرضت عليه نفسها وهي العذراء، استعصم، أهانها رفضه، كرهته بسخونة.

عاد يلاطفها:

- «ارقصي وغني سأحقق لك ما تتمنينه»

كأفعىٰ رقطاء تمايلت وتلوت علىٰ دقات الدفوف بنعومة، انسدل الرداء الأسود عن كتفيها، ظهرت مفاتنها متفجرة ناتئة من ثوبها الشفاف، حرارة جسدها ألهبت رغبة الحاكم وأسكرت الجميع واختلط الحابل بالنابل.

- «تمني»

حان موعد الانتقام.

- «أريد رأس الفتىٰ»

كلماتها مطرقة هوت علىٰ رأسه، أفاق من سكره، لو خدش الفتىٰ، مجرد خدش سيخرج عليه العامة.

صرخ السكارىٰ يطالبونه بالوفاء بوعده.

- «يفتي فينغص حياتنا، يظنه الناس ملاكًا، أثبت لهم أنه بشر، أعدمه»



يعتصـر الألم بطن العشـيقة، تتلوىٰ، تنظر للسـاقي، سـقطت ميتة، تبسـم الحاكم، تفاجأ بسـقوط الفتاة بجوار أمها، هرع إليها، احتضـنها يهزها، موتها قلب إحباطه لثورة عارمة، انفجر كثور هائج.

- «اقطعوا رأس الفتىٰ»

أتىٰ السياف مهرولًا وعلامات الخوف والدهشة علىٰ وجهه:

- «السيف لا يقطع رأس الفتىٰ»

ارتجت المدينة بالخبر:

- «الفتىٰ خالد لا يموت»

من فوق الجبل واعظ:

- «لا يوجد بشر مخلدون»

أقاموا له ضريحًا.

❊ ❊ ❊



# الصراع الأبدي

زفَّ الطبيبُ للملكِ البشـارة بأن الآلهةَ رزقتْهُ بتوءمين ملتصـقين بِبَعْضِـهِمَا بجلدٍ خفيفٍ.

تنبأ العرافُ بأن الدمَ الذي سيسيلُ عِندَ فصلهِما سَيَظَلُّ بينهُما طوال الحياة.

استغل إله الظلام الضعف البشري ونزغ بين الأخوين.

لم يستطع مداراة غيرته وكراهيته لأخيه، لا يرضىٰ بالقسمة، لم لا يمتلك كل شيء؟

ولاه الملك ولاية بعيدة ليفصـل بينهما، وأخذ منه العهد بالطاعة والولاء لأخيه ولي العهد.

وثب علىٰ أخيه، انتزع منه الملك بعد موت أبيهما؛ قتله وأمر:

- «قطعُوا جثته بعددِ أقاليمِ البلادِ، ادفنوها في حفرٍ عميقةٍ حتىٰ لا تدلُ الكلابُ علىٰ مكانِها، علقوا رأسَـهُ علىٰ بابِ المدينة، ليتأكدَ أعوانُهُ من موتِه»

الرعب يجتاحه؛ فشبح أخيه يتجول في القصر.

أحاط نفسه ليل نهار بالسمار ليطمئن بلا جدوىٰ، يشرب حتىٰ يثمل. أطاحَ بالكأسِ في وجهِ الساقي، فح معربدًا:

- «الآلهة فَضْـلَته عليَّ، أنا الأكبر، سـبقته للدنيا بلحظات، جعله الملك وَلِيًّا لعهده، حتىٰ أميرةِ أحلامي أحبته وتزوجها»

صاحَ غاضبًا:



- «آتوني بامرأته»

دخلَ رئيسُ الشــرطةِ راكعًا مرتعدًا تَصْــطَكُّ أقدامُه، ظل منحنيًا، خرجت الكلماتُ من فمهِ مبعثرةً:

- «اختفىٰ رأسُهُ، ولا أثر لزوجته»

ارتعب وهاج كالثورِ:

- «عذبوا الحراسَ، قطعوا أياديهم وأرجلهم من خلاف، اصــلبوهم علىٰ جذوع الأشــجار؛ ليكونوا عبرة لمن يتهاون في تنفيذ مشــيئتي، اعثروا علىٰ رأسه وعلىٰ الفاجرة»

طَافَتْ كل الأقاليمِ وراءَ دليلِها، صــقرٌ أرســلتُه الآلهة، حفظت الأرض قطعه فلم تُنتن، جمعَتها مع رأسِــهِ، تركته في عناية (أنوبيس) ليُبعثَ سَــلِيمًا يوم الحساب.

في حُلْمهَــا أطــلَّ عليهــا فــيضٌ مــن نــورِ (بِتَــاح) المــانحِ للحيــاةِ، أوحىٰ لها:

- «نظر رع لك بعين العطف، أحيا نطفته وأمرني بزرعها في رحمك، وأن يرعاها (جب) حتىٰ تتشــكل فتأخذها (نوت) لتكمل نموها في رحمها بالســماء، فيكون وليدك ابن للآلهة، عندما يحين الموعد سيأتيك (حابي) بابنك يحمله تياره المقدس في مهده سابحًا عكس التيار»

في خص علىٰ شَــاطِئ (حابي) المقدسِ تختفي عن أُعِين الشــرطةِ نهارًا والعسَسِ ليلًا.



تصـــلُها أخبارُ القاتلِ، الهوه، يقدمون له القرابين، يَعْفُو فيمنحُ الحياةِ، يقتُل فيُميت.

ثقل ثدياها واكتنزا باللبن مع فيضان ماء النهر وغمر ضفتيه، انتظرت السحابة حتىٰ ظلتها، التقطته، أرضعتهُ.

كُلُّ مواليد القرية المجاورة يوم ولادته وضـعتهم أمهاتهم ذكورًا، أرضـعتهم كلهم، صارت أمًّا لهم وصارا قادة لجيشه.

رفضَ قولَهم إنه ابنُ إلهٍ، صاح:

- «لا تسـجدوا لبشـر، لا تصـدقوا النصـوص اَلْجَنَائِزِيَّة المزيفة المنقوشة علىٰ جدرانِ المعابدِ، راجعوا كتابَ الموتىٰ»

عمه يقود جيشًـا كبيرًا تتقدمُه الحيواناتُ المفترسـةُ، طبولِهم تصـمُ الأذانَ.. تَرْتَجّ الأرضُ تحتَ أقدامِهم المثقلةِ بدروعِهم الحديديةِ في مواجهة جيشِ الوليدِ.

صاح الملك:

- «لا تدَعوا منهم أحدًا حَيًّا، البلدةُ مستباحةٌ لكم، أريدُ النسـاءَ سَبَايَا والأطفالَ والعجائزَ جثثًا»

تكلم الوليد:

- «لنحقن الدماء، نتواجه أنا وأنت»

جبن، أرسلَ إِلَيْهِ فرسانَه قاتلَهم وقتلهم الواحد تلو الآخر.

التقىٰ الجيشـان وسـالت الدماء، التقطت عينُه عينِ عَمّه، أخفض سـيفه، رفعَ عمه سـيفَهُ وهوىٰ به علىٰ عنقِ ابنِ أخيه.. تفادىٰ الضـربَة وأطاحَ بسـيفِ عمِه وضع سيفه فوق عنقه، استعطفَهُ:



- «أَتَقتَّل عَمَّك؟»
- «قتلت أخاك من قبل»
- «لو لم تكن الآلهة تريد موتَه ما مات»

علا صوت الكاهن الأكبر:

- «لنحتكم للتاسوعِ المقدسِ ليحكم بين الخير والشر»

❊ ❊ ❊



# رفقة

تشبثت بأبي:

- «أخاف أن أنام وحدي»

حاول أثناء أمي عن رأيها، ردَّت بحزم:

- «يجب أن تعتاد النوم في حجرتها، هذه أصول التربية الحديثة»

أطفأتْ المصباح وأغلَقَت الباب.

سارعت بشد الغطاء فوق رأسي، خارج الغطاء أسمع أصواتًا، وشياطين يلتفون حولي، سرَت الرعشة في كل جسدي، أحدهم يرفع الغطاء عن رأس، صرخت ودخلت في نوبة من البكاء.

فتح أبي الباب، احتضنني وأخذ يربت علىٰ ظهري، ابتسمت أمي لي تطمئنني وتطالبني أن أكون شجاعة، لم تطفئ المصباح، وأغلَقَت الباب.

عدت أختبئ خلف الغطاء.

أصوات أطفال تتردد!، وجه أحدهم حديثه إليَّ:

- «لا تخافي يا أختاه، اكشفي عن وجهك»

ببطء كشفت الغطاء، ثلاثة أطفال في نفس سني، بنتان وولد، قال الولد:

- «نحن هنا لحمايتك، والتسرية عنك»

كبرنا نحن الأربعة معًا، لا نفترق أبدًا.

أمي وأبي يسمعونني أتحدث مع أنه لا أحد معي في الحجرة، خضعت للعلاج النفسي.



أتىٰ أبي بشيخ، أخذ يتلو بعض آيات القرآن، شعرت بالراحة والسكينة، قال ناصحًا بحزم:

- «هي بخير، اتركوها لحالها»

أتت أمي بآخر، طلب مني التركيز والنظر في عينيه، خفت، حضروا، ضاحكوني، اغتاظ الشيخ، أخذ يهدد ويأمر من يلبسني بالخروج، قال:

- «ملبوسة من عدة سادة أقوياء»

نصح بحلقة زار.

في البهو المعتم وعلىٰ ضوء بضعة شموع تتراقص الخيالات علىٰ الجدران، تخنقني رائحة البخور النفاذة، مع النقر علىٰ الدفوف تغني الكودية بصوت أجش، انكمشت مرتعبة، قطرات دافئة تساقطت فوق رأسي، نظرت لأعلىٰ تذبح فوق رأس طائر أصابت قطرات دمه عيني فاصطبغ كل ما أراه باللون الأحمر، أصابني الغثيان، ضاعت صرخاتي وسط ضجيج الغناء وقرع الدفوف التي تسارعت وتيرتها، نظرت الكودية للمشهد وسط البهو وأعلنت حضور السادة.

اطمأننت لوجودهم حولي.

اسم الملبوسة اقترن باسمي حتىٰ بعد أن ذاعت شهرتي كطبيبة نفسية.

غابوا عني.

حُبُّهُ أنساني الدنيا، لقب الملبوسة سبقني إليه فابتعد.

انطويت علىٰ نفسي وأدمنت المهدئات.

بعد طول غياب فرحت بعودتهم.



# رؤية (الحاجة شجرة الدر)

استطعمت صوت أسمهان وهي تشدو بكلمات بديع خيري:

- «عليك صلاة الله وسلامه.. شفاعة يا جد الحسنين دا محملك رجعت أيامه.. هنية وتملت به العين»

أخذتني نشوة روحية وحلقت عاليًا، شعور بالشوق والزيارة، أعقبه راحة، ثقلت جفوني.

في ميدان الرميلة، وسط الحشود أقف أمام باب العزب بقلعة الناصر أبو المظفر صلاح الدين بن أيوب، تفاجأت بالحشود الغفيرة، أنا الأفندي الوحيد الذي يرتدي قميصًا وبنطالًا، كل الحاضرين يرتدون الجلباب المصري، لفتت ملابسي أنظارهم، التفوا حولي، صاح أحدهم:

- «جاسوس من الفرنجة»

صحت خائفًا:

- «فرنجة إيه يا سيدنا، أنا مصري، والله العظيم مصري، أشهد أن لا إله إلا الله وأن سيدنا محمدًا رسول الله»

من أقصىٰ الميدان علت عفرة الأتربة وصوت سنابك الخيل تدق الأرض، صاح أحدهم:

- «عسكر المماليك»



تعمد الحرافيش تعطيل الجند، ألبسوني جلبابًا وطاقية، ذبت بين الجموع بعيدًا عن أعين الجند.

مشدوهًا أتأمل باب العزب بالقلعة، تحفة معمارية، قارنت بين ما أراه وبين ما صارت إليه القلعة في القرن الواحد والعشرين. سألت من بجانبي عن سبب التجمع، نظر إليَّ باستغراب وقال:

- «ننتظر عطايا الملك الصالح، مراته عصمة الدين أم خليل خارجة للحج»

كأستاذ تاريخ قدرت أنه مضىٰ علىٰ بناء القلعة حوالي سبعين عامًا.

ملأتني السعادة فسأشاهد جمال الملكة الرومية أو الخوارزمية التي سلبت الملك عقله فأعتقها وتزوجها.

زاد ازدحام الميدان حتىٰ أنه لم يعد هناك مكان لقدم.

نزل الفرسان للساحة وتباروا باللعب بالرماح والسيوف، ونصب الحرافيش حلقات للمصارعة بينهم، واستحوذ الحواة والسحرة علىٰ أعداد غفيرة من الناس، في حين اتجه البعض إلىٰ حلقات الذكر بالمناطق المجاورة.

صوت البوق يعلن بدء تحرك الموكب رفعت عيني تجاه باب القلعة، ازدانت أسوارها بالأعلام الملونة وبجوار كل علم جندي بثياب الحرب يمسك حربة طويلة يعكس نصلها اللامع ضوء شمس الصباح.



فُتح باب العزب (يطلق عليه الأهالي باب الإسطبل)، ظهر حاملو المباخر، عمت رائحة البخور الزكية، ظهر فرسان المماليك براياتهم يتقدمهم أمراؤهم، عز الدين أيبك وفخر الدين أقطاي وخلفهم سيف الدين قطز ومجموعة من الأمراء والقادة، ثم تلاهم خروج ممثل الخليفة العباسي وقضاة المذاهب الأربعة.

صدح البوق بالسلام السلطاني، ظهر الملك الصالح نجم الدين، يمتطي فرسه الأشهب كامل البياض، مغطىٰ بالحرير الأخضر، فوقه سرج مطعم بالذهب يحمل في يده صولجانه وسط حراسه بزيهم الأسود المميز ودروعهم الثقيلة، يمتطون أحصنة سروجها مطعمة بالنحاس البراق، ضجت الحشود بالدعاء له.

أخيرًا ظهر الهودج الحريري الأخضر لشجرة الدر فوق جمل مزركش بأبهىٰ الألوان يسير أمامه أمير الحج ركن الدين بيبرس البندقداري، وخلفه هوادج الوصيفات وزوجات الأمراء والفرسان المعينين لحراسة الموكب.

بدأ عمال المحتسب في توزيع العطايا علىٰ العامة وكان نصيبي درهمًا فضيًّا.

شاركتُ العامة بالدعاء للملك وزوجته، وإن حرمني الهودج من رؤية شجرة الدر.

أيقظني صوت المنبه من حلم تملكني، أدرت مؤشر الراديو فأتاني صوت ليلىٰ مراد تصدح:

- «يا رايحين للنبي الغالي هنيالكم وعقبالي»



في جيب جلبابي وجدت درهمًا فِضِّيًّا مصكوكًا باسم الملك الصالح نجم الدين أيوب.(2)

---

(2)معلومات: في مكتبتي بحثت عن درب الحج المصري الجديد الذي كان موكب شجرة الدر أول من افتتحه عبر سيناء عام (645 هـ/ 1247 م) ليصبح بعدها طريق الحج الرئيسي، بدلًا من درب الحج القديم عن طريق قوص/ عيذاب علىٰ ساحل البحر الأحمر في مثلث حلايب، الدرب الجديد اختصر الوقت؛ حيث كانت مواكب الحجاج تخرج من القاهرة قبل شهر رمضان ويقطعون 640 كم ليصلوا لمدينة قوص بمحافظة قنا بصعيد مصر، ثم يقطعون 160 كيلو إلىٰ عيذاب بمثلث حلايب أو القصير، وينتظرون المراكب التي تنقلهم عبر البحر الأحمر إلىٰ جدة.

- أول من أطلق عليه لقب أمير الحج هو بيبرس البندقداري، وهو أيضًا أول من كسىٰ الكعبة بالكسوة المصنوعة في مصر أيام سلطنته سنة 661 هجرية، بعدها أصبح للمحمل موكب من عشرين جملًا يخرج من القلعة متجهًا إلىٰ الحجاز وأثمن محتوياته كسوة الكعبة وكسوة غرفة النبي- صلىٰ الله عليه وسلم- وبدأ في تصنيعهما من عام 1233 م في دار صناعة كسوة الكعبة بحي الخرنفش بقاهرة المعز لدين الله، (ما زالت هذه الدار موجودة حتىٰ الآن)، وباقي صناديق المحمل تكون عامرة بالعملات الذهبية للتوزيع علىٰ أهل الحجاز بمعرفة أمير الصرة المصاحب للموكب.

- قام الملك الصالح إسماعيل بن الملك الناصر بن قلاوون، بوقف ثلاث قرىٰ بالكامل للإنفاق علىٰ الكسوة، كما قام السلطان العثماني سليمان بن سليم الأول بضم وقف سبع قرىٰ أخرىٰ لنفس الغرض، سنة 947 هجريًا.

- في عهد محمد علي باشا توقفت مصر عن إرسال كسوة الكعبة لمدة ست سنوات، وأعيد إرسال الكسوة في 1228 م، واستمر إرسال الكسوة للحرم المكي والحرم المدني من مصر حتىٰ عام 1961 م، بعد أن تم إنشاء دار لصناعة الكسوة بالمملكة العربية السعودية.

- باب العزب بالقلعة كان الأهالي يطلقون عليه باب الإسطبل والباب يتوسط برجين كبيرين لهما واجهة مستديرة أعلىٰ كل منهما غرفة، وبينهما سقاطة تستخدم لإلقاء الزيوت المغلية علىٰ من تسول له نفسه اقتحام الباب.



# القرار

أهوي من ارتفاع شاهق، صوت الرعد يصم أذني، أعبر السحب الممطرة، أمد يدي أتحسس بنطالي فتبتل يدي.

مشوش أبحث عنكما، كعادتكما تفران، تتركونني وحدي تائهًا، أحاول النهوض، أترنح مكاني، أتقيأ.

- «أفسح لنا نرقد بجوارك»
- «الظلام دامس يحجب الرؤية»
- «لا حاجة لنا بالضوء»

أغلقت حواسي علىٰ نفسي، وجعي عصي الفهم، أتجرع مرارته منذ وفاة أبي.

- «لم تعد لي رفقة إلاكما وأمي، شجاركما الدائم يوترني، يشطرني نصفين»

يغرز الغول مخالبه في رأسي، يسري تياره في عقلي، أرتجف وتتداخل الألوان هلامية في دوائر لا نهائية صوتها كصوت مزلاج صدأ، لا تحتملوا هذه اللحظات.

- «أرجوكما لا تهربا، ابقيا ليخف العذاب ونقتسمه علىٰ ثلاثة»
- «لا تدع أفكارك تتصارع، انتبه، رتبها فتنجو»
- «بل انتباهك يجعل حواسك واعية فتزداد آلامك»



- «يقتل الأمل بسمومه المصبوغة بألوان زاهية، استيقظ، تخوض الماء الذي تهابه، لا تُجيد السباحة»
- «موج البحر أحن من البشر»

ألوذُ بدفء حِضن أمي للنجاة، منكما، ومن جَور أخي الأكبر، حضنها يخفف آلام الوحدة.

تعترض أمي علىٰ نصيحة أخي، يرتفع صوتها.

- «لن يحدث ولن تنال مرادك»
- «اليوم أنقذناه قبل أن يلقي بنفسه من سطح المنزل، وبالأمس كاد أن يغوص في البحر، الدعاء والرقىٰ والتمائم لا تجدي، العلاج في المشفىٰ»

أمي في عدة أثواب، فوق الأكتاف، أسعىٰ لرفقتها، يمنعني أخي، يعتذر للمشيعين:

- «مجنون، لولا أمي لكان مكانه المشفىٰ»

أعين تأخذني من الحاضر فيستيقظ حنين الماضي، أحلق في فضاء نسماته دافئة، اشتقت إليك لأنفاسك، لهمساتك، كنت قد نسيت أن قلبي ينبض، ما أجمل لقاءك بعد طول فراق، لحظة خطتها ريشتي ببهجة علىٰ لوحة الزمان الغائب، بهية كما كنتِ، استيقظت حواسي المغيبة، مدفوعًا تقدمت نحوها، اختفت البسمة، هشتني كذبابة وأمسكت أنفها تسدها وابتعدت.

- «جعل الناس تنفر منك، صور لك الماء نارًا، لم تستحم منذ ماتت أمك»

سجنت بالمشفىٰ عامين، أُفرج عني، بشهادة بها أدار أخي أملاكنا.



- «أستعذب رفقتكما لأخفف من آلام الوحدة فلا تثقلاها عليّ»
- «في الجنة خلاصك من نار الدنيا»
- «لا تستمع لوسوسته فيكون مصيرك الدائم النار»
- «ســنوات عمرك عجاف، بقايا الطعام التي يعيف الحيوان التهامها تلقىٰ إليك، هي فرصــتك للانتقام، لنرتب ليبدو موتك جريمة قتل لا انتحار»
- «ستموتون معي»
- «ملك الموت له أياد كثيرة»
- «لا نحتاج إلا ليدٍ واحدة»
- «لا تصغ إليه»
- «بل استمع»
- «لا تستمع»

نهضت واقفًا.





# وطن بغير أرض

عبقٌ معطرٌ يجتاح المكان، تحتضنني رفرفات الأجنحة ويعبر بي عطرها لسنين متوارية في ذاكرة الوطن.

مشدوهًا أراقب أرضي في السماء ترافق سرب طيور مهاجرة تبحث عن وطن ينبض بالحياة.

ناجيتها:

- «أتهجر الأرض الوطن؟!

هنا وطنك، عاودي الهبوط ليعود الماء للبئر، وتزدهر الوديان»

لم تعرني انتباهًا، تعبر لسماء أرحب، وأرض خضراء تتنفس فيها الحرية.

دمعة بحرقة الفراق أوجعت عيني وسقطت علىٰ أرضي الجرداء فابتلعتها رمال صحرائي.

نبضاتي تصرخ تعاتبني:

- «كانت لك رزقًا وسعادة، أهملتها، وعندما احتجت عَصَبْت عينها لتروضها فَأَفْقَدْتهَا البصر»

تبعثر الرياح الرمال فتصيب وجهي وعيني، كبلَتْ خطواتي السنين، رضيت خانعًا بسجن القدر، نظرت لأعلىٰ.

غاب السرب عن النظر.

❊ ❊ ❊



# مأوى

هدير أنينها كاد أن يصيبه بالصمم، وضع يديه علىٰ أذنيه، قال له الطبيب:

- «مجرد أوهام يا مولاي»

صاح:

- «أخرسوها، سيوقظهم أنينها، أعمِلوا فيها معاول الهدم، اقطعوا كل نبتة، أحرقوا حشاشها»

تقرحت عقولهم، جلودهم غطتها بثور أنتنها القيح وزكمت رائحته الأنوف، توارت الشمس خجلة.

يرتعد من الخَوْف وتتجمد أوصاله، المدافئ والمشاعل وغلق كل منافذ القصر لا يمنع أنينها من اختراق أذنيه، صار يهذي:

- «تجرأت تعصاني، سأحرق أخضرها ويابسها»

يعلم الطبيب أن الهوس أصابه وانفصل عن الواقع، جبن عن أن يبوح بتشخيصه.

جن، صرخ:

- «سأقتلكم جميعًا إن لم تسكتوها»

نصحه كهنة معبده بالشراب، زاد الشراب من ارتعابه.

تحركت فارتجوا من زلزالها، زاد هلعه، نصحوه بالاحتماء بسرداب قبل أن يدفن تحت أنقاض قصره.



- «أغبياء تريدون الخلاص مني، ألوذ ببطنها لتبتلعني، لأقطِّعَن أياديكم وأرجلكم من خلاف»

سلبتهم العبودية إرادتهم وضربت علىٰ أذهانهم فأصابهم الصمم، من لم يحصد الجوع روحه صارت أنفاسه شخيرًا.

لن يهزمها العاتي، اشتد غليانها وأزيزها تُنبه أولادها ليستفيقوا من سُباتهم:

- «استيقظوا لتنتهي اللعنة قبل أن تحصد فلذات أكبادكم، كونوا صَفًّا كالبنيان المرصوص، تشتاق الشمس أن تشرق»

انحصر الطوفان عن ملح يحرق الجلود المهترئة وعلا نقيق الضفادع، مرت أسراب الجراد ولم تهبط فلا يوجد ما تقتات عليه.

ظل علىٰ كفره رغم الآيات.

أنبأه الكهنة:

- «الموعود ولد اليوم»

جاب جنوده الأرض بحثًا عنه ليقتلوه، أخفته في بطنها حتىٰ اشتد عوده، خرج للعلن داعيًا لإنهاء الغفوة.

غرس عصاه في بطنها، ماجت، أزاحوا الغشاوة فأبصروا؛ غرسوا بذورهم، أراق الجند دماءهم فارتوت الأرض واخضرت، أظلتهم الشمس. تجمعوا يدقون أبواب قصره.

❊ ❊ ❊



# عواء

صباحك كئيب، لعينة، تعطبين في المكان غير المناسب.

أفشل في تحريكها دفعًا، حانقًا أركل بابها بقدمي.

انتفضت مذعورًا، كلاب كثيرة تنبح، أضع يدي فوق أذنيَّ مرتعبًا، أسرع الخطي خائفًا، أسقط وتتبعثر كراساتي، يتلقفني حارس العقار، يربت علىٰ ظهري، يهدئني في حضنه، اعتدت أن أذهب إليه.

أفقت علىٰ عواء نفير السيارات، كامل جسدي يرتجف، رفعت يدي من فوق أذنيَّ، أشرت لهم مُحْتَجًّا، زاد العواء، أسب والعن الجميع.

رنين.

- «ألو»
- «أين أنت أستاذ؟ حان موعد عرضك علىٰ الخبير الأجنبي»
- «أنا قريب من المشفىٰ، لن أتأخر»

كاد الجنون يصيبني، سأخاطر بتركها فوق الكوبري، وأستقل سيارة أجرة لألحق موعدي.

وجدته أمامي، عملاق تميل بشرته للسمار، ركن مكنسته، وقف خلف سيارتي يدفعها، أعرف أمثاله، لا يساعدني شهامة، ينتظر المقابل.

ركنَّا السيارة، أوقف لي سيارة أجرة، مددت له يدي، نظر إليَّ وابتعد.

❊ ❊ ❊



# اختراق الحاجز

تعثرت قدماه، عنفت أمه الخادمة.

تَرُصُّ أدوات المائدة بنظام، آداب تناول الطعام والإتيكيت تنفذ بدقة.

من خلف زجاج النافذة المغلقة يراقب ابن حارس الڤيلا، يقفز من نافذة حجرتهم بالحديقة، يتأرجح بأرجوحة ربطها بين شجرتين، يسقط، ينام فوق نجيلة الحديقة؛ يقوم، ينفض بنطاله، يقهقه بصوت مسموع، يطارد فراشة، يستقل دراجة قديمة يخرج للطريق، بمهارة يدور بها بين المارة والسيارات، يسقط جنزيرها، يصلحه بمهارة، يلتقط ورقة يمسح بها يده من آثار الشحم.

يقود دراجته داخل الحديقة، لا يستطيع الإسراع؛ فالخادم ممسك بالدراجة خشية أن يقع.

كبر وسط روتين خانق.

من المقعد الخلفي لسيارته، أمر السائق بالتوقف بجوار عربة يد يلتف حولها الناس، أعطاه البائع طبق فول بالطحينة والزيت الحار، وطبق آخر به بعض السلطة، ورغيفين من الخبز البلدي، خبط ظهرا الرغيفين ببعضهما ينفضهما من الردة، طلب عود بصل وقرن فلفل أخضر، شعر بالرضىٰ، تنفس بعمق، وترحم علىٰ أمه.

استبدل فنجان القهوة بكوب من الشاي المضبوط، ضحك في وجه فراش حجرته ومنحه بقشيشًا، قضىٰ يومه في سعادة.

صنع أرجوحة بالحديقة بين شجرتين، هز قدميه واخترق جدار الصوت.

يطرقون باب حجرة نومه، ازداد طرقهم، شرعوا في كسر الباب.



# آخر وصية

تثاقلت حركة قطاري؛ يلهث ليصل لمحطته الأخيرة ويرتاح.

أجول بعيني متفقدًا ميراث أولادي، كتب ومراجع، ظلمتهم.

نفضــت تراب الســنين عن صــندوق أبي، فاحت رائحة المســك والعود؛ وضعت طربوشه فوق رأسي، وأمسكت منشة جدي من يدها العاجية.

علبة بخور جاوي تجاور علبة نشــوق، تحتهم شــمســية ســوداء وطاقية وجوارب صوفية وجريدة قديمة ترحب بسعد زعيم الأمة، وخبر في سطرين عن وفاة سيد درويش.

تتراقص شعلة السبرتاية منعكسة علىٰ الصينية النحاسية اللامعة؛ ترفع جدتي الكنكة قبل أن تفور القهوة، تفوح من فنجان جدي رائحة البن المحوج بزر الورد والحبهان وجوزة الطيب.

- «اتفضل القهوة يا سيٰ الحاج»

أعدل عباءة أبي البنية، أمد يدي أتناول القهوة السوداء تحليها بسمة زوجتي.

عبق السنين، وأصدقاء الطفولة وبراءة الحب الأول أتنفسهم. حولي.

يتصاعد بخار الماء من بستلة فوق وابور الجاز، تناديني والدتي لأستحم.

أصــعد الســرير خلف ناموســيته التي تحجب الرؤية، يتســلل الدفء ومعه النعاس، وصوت الباجور يأتيني مع صوت الماء المنساب علىٰ جسد أخي، تؤنبه أمي لإهماله وتربت علىٰ ظهره بحنان، يملؤني الأمان.

أحفادي يلتفون حولي.



- «انفخلي البالون يا جدي»

طارت البالونة، ضحكاتهم تدخل السعادة لقلبي، تلوت عليهم الرقية الشرعية.

لملمت ميراثي.. أغلقت الصندوق.

أول بنود وصيتي أن يكون لي صندوق.

❊ ❊ ❊



# غلبها الشيطان

سألتُها متعجبة:

- «تريدينني ضرة لك؟ زوجة ثانية لزوجك»
- «أنت أعز صديقاتي، لا أئتمن غيرك علىٰ نفسي، مرت سنين ولم أنجب رغم خضوعي للعلاج، زوجي يريد وريثًا، أنت سبق لك الإنجاب قبل أن تنفصلي عن زوجك»

تزوجته، أنجبت له ابنة جميلة، كانت محل اهتمامنا نحن الثلاثة، تحبها كأنها ابنتها، لكنها ظلت الأثيرة عند زوجنا.

في يومٍ حالك السواد جاءتني فرحة، احتضنت ابنتي في حنان وقالت لها:

- «سيكون لك أخ أو أخت بعد تسعة أشهر»

احتضنني وهي تبكي.

- «أنا حامل، ربنا استجاب لدعائي»

لم يترك لي الفرصة لأفكر، أمسك بناصيتي: "يفضلها عليك، قد تنجب ذكرًا، يكون له النصيب الأكبر في أرث أبيه، ستصبحين أنتِ وابنتك في مهب الريح".

أشارت لي صديقة السوء بضرورة التخلص من جنينها، دلتني علىٰ من له القدرة علىٰ تحقيق مرادنا.

أعطيته قطعة من ملابسها الداخلية تحمل رائحتها.



أعطاني حجابين أضع أحدهما أسفل مراتب سريرها، والآخر يدفن في مقبرة، وزجاجة بها محلول لأضيفه علىٰ طعامها.

دلني علىٰ لحاد يسكن مقبرة قريبة ليقوم بدفن الحجاب.

اشتعل الصراع داخلي، إلىٰ أين يأخذني حقدي وحسدي؛ هل مات ضميري؟ بكيت، تنبهت

لضحكاتهما تخترق أذني، عاد إليَّ، يدعوان ليرزقا بالولد، عادت النار تأكلني، حرقت صحوة ضميري.

اللحاد يغطىٰ وجهه بشال، لا أرىٰ سوىٰ عينيه ونظراته شبه الميتة؛ متأكدة من أنني رأيتها من قبل، لا تتحول عينه عن عيني، كأنها أمسكت بعينيَّ، لا أستطيع تحويلًا لنظري بعيدًا عنه يتمتم بكلمات، لا أفهمها، تملكني الخوف، بللت ثيابي، مد يده يعريني، أحاول المقاومة فأفشل كأنه كبلني بسحره، احتبس صوتي وصار تنفسي شخيرًا.

عدت مهلهلة الفكر مشتتة، رائحته العفنة ملتصقة بي، تخلصت من ملابسي، الرائحة ملتصقة بجلدي، أصابني القيء، سارعت باستدعاء الطبيب لي.

بدأت تنزف، وتنتابها حالات هستيرية، ترىٰ كابوسًا متكررًا، كلب أسود ينهش رحمها؛ أُجهضت.

لازمني القيء وعذاب الضمير، وبليت بقلة النوم وإذا أخذتني سنة أرىٰ وجه الرجل، يأمرني بالذهاب إليه فتفوح نتانته في المكان، فشل الأطباء في منحي الراحة.



رغم آلامها تسـهر بجواري تمرضـني وتسـري عني، لا أسـتطيع النظر في عينيها، تراقب المحاليل المعلقة لتعويض امتناعي عن تناول الطعام، هزلت وتعددت نوبات هذياني، شعرت بدنو أجلي.

أريد مغفرتها؛ فهل إذا صارحتها ستغفر لي؟

أوصيتها بابنتي، أغالب دموعي، صارحتها، سقطت فوق الأرض.

أفيق من غيبوبتي على صـور مشـوشـة، بكاؤها وابنتي في حضـنها، أراقب شفتيها؛ لا أفهم أو أسمع ما تقول.





# عودة من الإجازة

عُدنا من مهمتِنا خلفَ خطوطِ العدوِ بأسيرين، وحسن وسمعان شهيدان؛ أقسمتُ علىٰ الأخذ بثأرِهما.

نَلْتَفّ حولَ تختة الرمل، عليها تجسيمٌ لموقعِ العدو، القائدُ يشرح المهمة، يحدد الأهداف ويوضحُ أهميةَ العمليةِ، نظرَ إليَّ مبتسمًا:

- «ثأرك يا محمود»

تحتَ جنحِ الظلامِ عبرنا القناةَ، زحفنَا، نتجنب الألغامِ، فوجئَ جنودُ العدوِ بنا، اشتبكنا معهم ودمرنا الهدف، سارعنا بالانسحاب تغطينا طلقات المدفعية من غرب القناة.

ثأرتُ لسمعان وحسن، نقلت للمستشفىٰ العسكري لعلاج إصابة في قدمي.

يحضرني مشهدُ أبي يخبرُنا بالانتقال لمدينة جديدة لا يعرفنا فيها أحد، ثأر لا ناقة لنا فيه ولا جمل ولا تنطفئُ أتونُه يلاحقنا، أتذكر ما دار بيننا من حديثٌ:

- «هاجرت من القرية قبل أن تتزوج بأمي، أنا وإخوتي لسنا من مواليد القرية ولم نزرها قط، لماذا الإصرار علىٰ أخذ ثأرهم مني!؟»
- «يحددون هدفهم، يختارون زينة شباب العائلة المنافسة، مهما بعدنا نحن نحمل لقب العائلة»

ماتَ أبي ونسيتُ الموضوعَ تمامًا.

عائد من إجازتي، تشـير إليَّ زوجتي فرحة، رفعت يدي أرد تحيتها، سـقطتُّ أرضًـا من رَصـاصـات الغدرِ، اخترقَتنِي من الخلف، لتستقر الأولىٰ أسـفلَ القلبِ والثانية في عنقي.

بذلُ الأطباءُ جهدَهُم لإنقاذي.

فوقَ سـريري أتـأرجح بينَ لحظاتِ الوعي واللا وعي، يرتحل عقلي بين ميدان تعانقت فيه أرواحنا مع روح الوطن، وبين سـاحة الغدر حيث يسـود ظلام الثأر الأسود العقول والنفوس.

ينتشـلني من المقارنة وجهُ زوجتي في وحمِها الأولِ تطلب فاكهة في غير أوانها وأمي توصـيني بإحضـارها، رائحة إعداد أمي للطعام تتسـلل لأنفي، أشعر بالجوع، سمعان وحسن يسألان:

- «ماما طابخالنا إيه النهارده يا محمود؟»

تضحك أمي وهي تضع أمامنا الطعام.

منذُ أربعين ليلةٍ أشعرُ بك تحيطُني، تبتلعُ كَلَّ الهواءِ فألتقط أنفاسي بصعوبة، وعندما أتنفس تكونُ أنيسـي في وحدتي، أعلمُ أنني حتمًا ذاهبٌ معك عندما يحين الموعدُ.

أقدام الجند تدق أسـفلت الطريق بانتظام، سـلام سـلاح، أشـتم رائحة علم بلدي، سمعان وحسن يرحبان بي:

- «كنا ننتظر عودتك من الإجازة»

❋ ❋ ❋



# قرصات الدنيا

تتلوىٰ مصارينُها صارخة من قرصات الجوع، سقط غطاء رأسها، لم تعره اهتمامًا، اقتربت بعد نضال لتفوز بعلبة لبن أطفال مدعم تسد به جوع رضيعها.

- «نفدت الكمية»

هكذا صاح البائع في الصيدلية.

لملمت نفسها، جلست ترتاح علىٰ الرصيف، أحصتْ جنيهاتِها القليلة، ابتاعت ربعَ كيلو لبن وبضعةَ أرغفة، بعد تردد اقتطعتْ نصفَ رغيفٍ أكلَته؛ لتوقف نباح مصارينها.

طفلُها بجوارِ أبيه يبكي، هرولتْ للمطبخِ، تغلي اللبن وتنزع منه الدسم، تخففُه بالماءِ ليناسبَ معدةَ الرضيعِ.

ترتقُ فتقًا بقميصِ ابنتِها.

بدتْ لها قتامةُ الأيامِ القادمةِ، اصطبغَت أفكارُها باللونِ الأسودِ، شفرات حادة تطحنُ رأسَها، مدت يدها تمسح دمعة تدحرجت علىٰ وجنتها، ركنَت رأسَها علىٰ الجدارِ، وجه أبيها يطل عليها، مدت يدها تتحسس وجهه، ارتدت يدها خائبة، كلماته ما زالت تسكن عقلها:

- «الصابرُ وقت الشدةِ ربه يوسعها عليه، وبعد الضيق يجيء الفرج»

تصب له آخرَ ملعقةٍ من الدواءِ، قرأتْ كلماتِ الأسىٰ في عينيه، يؤلمُه أنه أصبحَ حِملًا عليها.

ابتسمت واحتضنت وجهَه:

- «يا راجل، ربنا مابينساش خلقه، بكرة تخف وتقوم بالسلامة»

انفجرَ زوجها في موجةٍ من البكاءِ، راح بعدها في نوبةِ غياب عن الوعي.

رفعَت يداها طالبة الفرج من ربها.

- «ربنا فرجها؛ لقيت شغل في مصنع جنبنا، عاملة تغليف»

يقرأُ في عينيها الكذبَ.

تركَتْ ابنَها الرضيعَ بجوارِه، رافقَت ابنتها للمدرسة، ثم توجهتْ لعملِها الجديدِ.

حُسنة في الثلاثين من عمرِها، وَرَغْم معاناتها تظلل وجهها مسحةٌ من الجمالِ.

سلمها بوابُ العمارةِ دَلْوًا وفرشاة وممسحة لتنظيفِ البلاطِ، قال:

- «خبطي على الشقق يطلعولك مياه، باين إنك جديدة في الشغلانة، ابدئي من فوق»

شكرته وبدأت عملها في مسحِ سلالم المنزلِ.

ساكن بالدورِ الرابعِ يعيشُ بمفرده، في العقدِ السادس من عمرِه، يتمتعُ بسمعةٍ طيبةٍ، كلما طرقَت بابَه ليُخرجَ لها بعضَ الماءِ، تعاطفَ معها، يجزلُ لها العطاءَ، وكلما سنحَت الفرصةَ تجاذبَ معها أطرافَ الحديثِ، عرفَ أحوالَها، وأنها تخشى تركَ ابنِها الرضيع مع زوجِها؛ فهو كثيرًا ما تأتيه نوبةٌ من الإغماء، طلبَ منها أن تُحضرَه عندَه عندَ حضورِها للعملِ.

بدأتْ تركنُ إليه، لمحتْه ينظرَ لجسدِها من الخلفِ، أرضىٰ ذلكَ غرورَ الأنثىٰ فيها، لم يبدِ الرجلُ أي تصـرفٍ غيرَ لائق، كادَت قدمُها أن تنزلقَ بفعلِ ماءِ المسحِ أمامَ بابِ شقتِه، أمسكَ بيديها، أطال بقاءهما في يده ولم تسحبْهما، تلاقَت أعينُهما، حارت من نظراته، أهي الرغبة أم العطف؟ سرَت قشعريرةٌ في جسدِها، سحبت يدها.

تدهورَت صحة زوجُها، طالت نوبة الإغماء، لا نقود لوسيلة نقله للمستشفىٰ ولا تستطيع دفع أجر الطبيب في الزيارةِ المنزليةِ.

عجزها جعلها حانقة علىٰ المجتمع، سيطرت عليها نوبة من البكاء، راحت تندب حظها، لطمت وجهها بيديها.

فرصته مواتية، ليستغلها، حانت لحظة صبر عليها كثيرًا، الضحية كالطائرِ الذي يتخبط بعد ذبحه، أمسك بأذنيها:

- «يمتلك المال ويريدك، لن يتعدىٰ الأمر لمسة أو قبلة خاطفة، إذا تمادىٰ حجميه، ستعودين بالمال والدواء والطعام»

انتبهت من شتات فكرها علىٰ شدة سعالِ زوجِها وأنينِه، بكاء رضيعها جوعًا قوَّىٰ فرصتَه.

- «ناعسة، استبدلَت شعرَها بالذهبِ من أجل لقمة عيش لأيوب، الرجلُ كبير في السن ويبدو مسالمًا ولا خوف منه، يريدك، لا تضيعي الفرصة، لك مشاعر وتحتاجين لمن يربت علىٰ ظهرك، اكسبي لحظات من الحنان والدفء»

قامت لتخفيف توترها، تنفست بصعوبةٍ، تأجج الصراعُ واشتعل بينَ ضميرِها وبين الملعون، حزمت أمرَها.

استحمت وارتدَت أفضل ما لديها، حرصت ألا تلتقي نظراتها بعين المريض، بدأت الشمس تجنح للمغيب، ما زال هُنَاكَ بصيص من ضوءِ النهارِ يجاهدُ حتىٰ لا تقعُ في الخطيئةِ، مَطَارِق ثقيلةٌ تترددُ نبضاتُها في صدرِها وتدوي في عقلِها.

الظلام أرخىٰ سدوله، ضغط وزاد من وسوسته:

- «هو الوقت المثالي، استتري بالظلام، زوجك مريض من شهور طويلة، أنت شابة، وهو محروم من سنين»

اشتعلت الرغبة داخلها، هربت من نفسها، سارعت تتلفت تتأكدَ أن لا أحدَ يراها، رحَّبَ بها.

ابتسمَت في ميوعةٍ، ابتلعَ ريقَه، ارتمَت في حضنِه، أَطَلَّتْ الأنثىٰ من عينيها.

قامَ بفتحِ البابِ.





# فجوات الهُوية

أرقب الشمعة الوحيدة؛ تذبل شعلتها الواهية ودموعها تنساب وتتجمد أسفلها، خلف ضوئها الخافت أشباح تتراقص على الحائط.

تتحشرج أنفاسي تحت وطأة أكداس من الألم، تغذيها تضارب أفكاري، انتبه إلى أنني على شفا حفرة يكسو قاعها شفرات حادة.

بنهم ألتهم دخان سيجارتي، أكتمه حتى أخرجه مرغمًا، يعلو متعرجًا كحية رقطاء تتلوى، تئن أنفاسي المحبوسة في صدري؛ تتوق للانطلاق.

وقفت مبتسمًا أبارك لمن أخذ حقي في الترقية، فضحتني الأعراض اللعينة، أمسكت رعشتها بأسفل عيني وتسللت لوجهي.

سارعت أمي باحتضاني، ذرفت الدمع الذي غالبته، بللت صدرها، ربتت على ظهري، قبلت رأسي، نمت.

نهضت مرهقًا يؤلمني جفاف حلقي، أحاول فك عضلاتي المتقلصة، أفرغت ما في معدتي.

- «صرت مدمنًا على الشراب، تثمل، تفك الخمر عقدة لسانك فتصير عربيدًا، لست من أحببت وتزوجت»

أطرقت برأسي خجلًا، حرصت ألا تتلاقى أعيننا.

أرتدي مرغمًا ثوب الحياء، أغض الطرف عن الإساءة وأبتعد عن المشكلات لأتجنب الهزيمة، لا تفارق وجهي بسمتي المصطنعة، أكابد لأخمد البركان المشتعل داخلي، ليمر اليوم بسلام.

يبتسم في وجهي وهو يصب قهوتي، يسألني سؤاله المعتاد عن رأيي، أبش في وجهه مثنيًا علىٰ مهارته، مع أنها لم تعجبني يومًا.

أحلامي تفوق قدرتي علىٰ المواجهة، دائمًا انتظر الحلول من غيري.

طيف الثورة يغزوني، يتنافر ويتبارىٰ مع خوفي وترددي، عراكهم لا يخمد إلا بعد قطع الاتصال بين عقلي وأفكاري بالشراب، فأتخبط بين الظلام والنور.

- «اذهب للطبيب»

لم تكن هي المرة الأولىٰ التي تطلب مني ذلك.

اصطحبتني لتضمن عدم تهربي.

- «اذهب للطبيب»

يغوص الطبيب في أعماقي؛ يلوي عنق مقاومتي؛ يغافلني ويمسك بأفكاري، عاد بي لطفولتي، يستحضر ما ترفضه ذاتي الواعية من بين فجوات الذاكرة، أرتجف.

أبي وسط الخفراء، يسحلونه فوق الأرض، يضربونه بشدة والعمدة يدوس رأسه بقدمه ويهدد، ويجعله مثلًا لمن لا يطيع.

أصرخ من شدة ألم أبي فتنالني ركلة قدم ألقت بي بجواره، وجهه مغطىٰ بالدماء، عروه؛ بات جسده المثخن بالجراح واضحًا للجميع، تكومت أمي فوقه لتحمل عنه بعض الأذىٰ، نالها منه الكثير، لم يجرؤ أحد علىٰ سترها عندما تعرت.

سحبتني خالتي، وضعت رأسي في صدرها تخفي عني المشهد، استوطن الانكسار عقلي.



اغلق الطبيب المسجل وابتسم، وضع يده علىٰ العقدة.

- «واجه، ألقِ مشاعرك الغاضبة في وجوه الآخرين»

ليلتي الأولىٰ التي نمت فيها دون كوابيس.

انتظرته ليقدم لي القهوة.

❊ ❊ ❊



# المقبورة

أقبروني حية داخل سجن، نظراتهم وتلميحاتهم، استسلمت لسجني الاختياري، وجفت منابع دمعي.

ارتاحوا لتقوقعي؛ فوجودي كأنثىٰ دميمة وغير متزوجة صداع مزمن في رءوسهم، حتىٰ في الأعياد من يتذكرني منهم يفضل مراسلتي علىٰ التحدث إليَّ ولو عن طريق الهاتف، أموت في اليوم ألف مرة.

رغم أنني لم أَتَخَطَّ عامي الأربعين إلا أن من يراني يظنني أكبر بكثير.

لا ذكريات لدي أعيش عليها سوىٰ حضن أمي، أغمض عيني وألوذ به، يمر يومي بطيئًا وأتمنىٰ موتًا يعيف أن يضمني.

أتكوم مع وحدتي فوق فراشي البارد، وذلك الخفاش عشه فوق رأسي ويأبىٰ أن يغادر، ولولا أنفاسي المتصاعدة في أنين وبعض الدفء في جسدي لظننت أنني ميتة.

لا أعرف ماذا دهاني اليوم؟! بعد أن وقعت عيناي علىٰ صفحة من مجلة قديمة مصادفة تتصدرها صورة "كريستيان ديور" أحد ملوك الموضة، ومكتوب أسفلها: "ليست هناك امرأة قبيحة، هناك فقط نساء لا يعرفن كيف يبدون جذابات"، اكتشفت أنني لا أتذكر شكل وجهي، شيء ما بداخلي يمنعني من التذكر، من زمن رفعت راية الاستسلام، ضحكت في سري من القول المأثور: "المهم الأخلاق والجمال الداخلي!".



مسـحت العفار المتراكم علىٰ مرآتي ورحت أتأمل ملامحي، جسـد مكتنز ووجه متكتل في غير تناسـق لا يمت للأنوثة بصـلة، ويبدو أنفي كخنجر مغروس في وجهي أسفله أسنان كبيرة تطل من بين شفتين غليظتين.

تمنيت لو كان عندي طلاء لأطلي أظافري كما كنت أفعل، ثم أسـتعرضـهم أمام المرآة فهم أجمل ما في.

أخذتني جرعة من الضحك المؤلم أعقبها بكاء هستيري.

بعد موت أمي اسـتولىٰ أخي وأختي علىٰ معظم أثاث المنزل وعندما أبديت اعتراضًا كان ردهم:

- «ماذا سـتفعلين بكل هذا الأثاث وحدك؟ يكفيك كرسـي وسـرير ودولاب»

هم بالفعل كل ما بقي لي بين الجدران الباردة التي لم يعرف الطلاء لها طريقًا من زمن بعيد.

جالت كلمات أمي وأنا صغيرة بخاطري:

- «نفسـي أطمئن عليك قبلما أموت وأشـوفك في بيت عدلك (زوجك)»

تضـحك أختي الكبرىٰ من كلمات أمي وتنظر إلىٰ متهكمة؛ فتلحقها أمي بلطمة علىٰ وجهها، رغم ضيقي لم يصدر مني احتجاج فقد اعتدت ذلك.

نظرتُ لصورة أبي وأمي علىٰ الجدار، لا أشبههما فهم يشبهون البشر، قيل إن أمي تناولت دواء وهي حامل بي فتشـوهت وأنا جنين، عاودني البكاء، رحت في شبه غيبوبة.



يد تلمس رأسي وتداعب شعري برفق، فتحت عيني، وجه جميل مشرق ينظر إليَّ، أخذ بيدي، خفيفة أنا أسبح معه فوق السحاب بينما تتسلل لأذني أغان وزغاريد، أجلسني علىٰ جذع شجرة ثم جثا علىٰ ركبتيه يطلب يدي، ألبسني أجمل خاتم رأته عيناي، تزوجنا وقضيت في أحضانه أجمل ليلة في عمري.

قمت منتشية، جائعة علىٰ غير عادتي، ملمس شفتيه ما زلت أشعر به، نظرت في المرآة، من هذه؟! تشبهني، حركت رأسي فحركت رأسها، ملابسها ألوانها زاهية بعكس ملابسي القاتمة الألوان، جميلة ابتسمت لي، رأيته خلفها مد يده إليَّ، مددت يدي لأتلقف يده! اصطدمت يدي بزجاج المرآة.

سرني تبدّل ملامحي، يا إلهي هل مت وهذه جنتي؟! تحسست وجهي، ما زلت علىٰ قيد الحياة

يا ربي هل ما أنا فيه حلم أم حقيقة؟! فتحت النوافذ، تسللت الشمس مشتاقة لدخول البيت، رسمت خطوطًا بلورية لها بريق علىٰ الجدران، فر الظلام طريدًا.

ارتديت فستانا بألوان زاهية، مشطت شعري، تعطرت، لونت أظافري ووضعت بعض المكياج، جلست أنتظره.

طرق علىٰ الباب، مفاجأة غير معتادة، أختي... بالباب، نظرت إليَّ باستغراب، سألتني:

- «أختي موجودة؟»

❊ ❊ ❊



# وحّدتهُما القطة

تبوأ الإمامان بجلابيبهم البيضاء -ورائحة المسك تفوح منهما- صدارة المسرح، يتلقون الأسئلة المتفق عليها مع لجنة الإعداد مسبقًا.

أحد الحاضرين خرج عن نص الأسئلة المتفق عليها وقال:

- «لي سؤالان»

حاول المنظمون منعه فأشار إليهم المشايخ بتركه، قال:

- «سعدنا نحن عامة المسلمين من توحدكم في تكذيب المارق سلمان رشدي صاحب رواية "آيات شيطانية"، وسؤالي الأول: لم لا تتوحد آراؤكما إلا في المصائب؟

سؤالي الثاني: ما الجدوىٰ من إصدار فتوىٰ إهدار دم الكاتب، وهل كانت في صالح الدين؟»

كان السؤال مفاجأة، تصدىٰ أحدهما للإجابة:

- «هذا موضوع مر عليه أكثر من عشرين عامًا وسقطت الفتوىٰ، ولا جدوىٰ من إثارة هذا الموضوع»

رد الإمام الثاني بغضب:

- «الفتوىٰ أصبحت تشريعًا، والتشريع لا يسقط بانتهاء السبب»

ظهر علىٰ السطح ما يخفيه الإمامان من خلاف، شارك الحضور في الخلاف وكثر اللغط، سارع المنظمين بإنهاء الاجتماع.



علىٰ مائدة الطعام اجتمعا ثانيًا، عاتبا بعضهما علىٰ إظهار خلافاتهما في العلن، توسطت المائدة العامرة بأصناف الطعام سمكة كبيرة تفوح منها رائحة الشواء المغرية، مد أحدهما يده يقطع قطعة فأمسك الآخر يده وأخبره:

- «هذه سمكة لا فلس فيها (قشر)، محرم أكلها»
- «صيد البحر وطعامه متاع لنا»
- «حرام»
- «حلال»

عاد الاختلاف للظهور وتطور لعراك.

مكبر الصوت يصدح بصوت أذان الصلاة، لم يعِروه انتباهًا، ظل كلٌّ منهما ممسكًا بتلابيب الآخر يكيل له الاتهامات واللكمات.

قطة جائعة تسحبت في هدوء، خطفت السمكة وفرت هاربة.

أوقف الشيخان الشجار وأخذا في الهرولة خلف القطة.





# لحم طازج

ما أنا مقبلة عليه أمر خطير، كلما هممت بتنفيذه ترددت واستغفرت ربي، لكنني عازمة علىٰ تنفيذه.

يجب التفنن في إغرائه بالدخول عندي في هدوء دون أن يلفت نظر أحد من الجيران، وأن تكون الخطة محكمة؛ فأي خطأ ستكون نتيجته وبيلة.

أفواه الصغار لا تعرف إلا ما تشتهيه، يشتهون ما هو صعب المنال، وسفيرهم في المطالب يجيد دبلوماسية البكاء:

- «ماما نفسي في اللحمة»

اختطف الوباء اللعين زوجي منذ عامين، لا مصدر دخل لي، عرفنا الحزن والحاجة، كان لا بد لي من النزول للاسترزاق.

أمام مدخل محطة مترو الأنفاق أجلس ومعي أولادي الثلاثة، بنتان في مراحل التعليم الابتدائي وولد في الخامسة من عمره، ارتديت النقاب لأتخفىٰ ولا يعرفني أحد.

ككل التلاميذ لا أحد يذهب للمدارس خوفًا من العدوىٰ.

أمامي قفص من الجريد، أرص فوقه مصدر رزقي: بعض أكياس المناديل الورقية، وبعض الكمامات الواقية.

الرزق قليل بالكاد يسد جوع الأولاد، لا يمر اليوم دون مشكلات، وأصعبها دفع الإتاوة للحفاظ علىٰ مكان جلوسي المميز أمام مدخل المحطة.

مع اقتراب الظهيرة تنقل إلينا الريح رائحة الشواء من مطعم الكبابجي القريب، تتسلل لأنوفنا، يسألني الأطفال عن الرائحة فأراوغ وأتهرب من الإجابة، ثم يتكلم سفيرهم:

- «ماما، نفسي في اللحمة المشوية»

كيلو اللحم المشوي لدي الكبابجي ب280 جنيهًا، وهو ثمن باهظ ولا مقدرة لي علىٰ توفيره.

عم حسان بائع الفاكهة، يحب أولادي ويعطف عليهم وكثيرًا ما يفيض علينا من بواقي الفاكهة، سمع تكرار السؤال عن اللحم المشوي من ابني، ابتاع ربع كيلو وبعض الأرغفة وأهداهم للأولاد ولسان حاله يقول: "لا يشعر بمن يعاني الجوع إلا من جاع"، أتىٰ لي بجريدة أشار إلىٰ صورة أحد رجال الأعمال العائدين من الخارج بعد العفو عنه وقال:

- «الراجل ده ياما أكلنا لحمة وفراخ فاسدة، كسب ملايين وهرب بره البلد، وأهو راجع باشا»

في حينا الشعبي الفقير حيث أقطن أكثر من جزار سعر كيلو اللحم عندهم فوق المائة جنيه، إلا جزارنا الخصوصي الذي نبتاع منه، الكيلو بسبعين جنيهًا واللحم طازج ومختوم بختم المذبح رغم أنه يذبح في بيته، لا نسأل أبدًا عن نوع اللحم، أو نوعية الحيوان الذي ذبح.

وقفت في طابور طويل؛ فاللحم ينفد فور عرضه للبيع، صاحت إحدىٰ النساء:

- «اللحم الطازة يفتح النفس لونه جميل ومنور مش غتيان (غامق اللون)»



ابتعت كيلو، واحتفلنا بالشواء.

لم تطل المدة، أعاد الصغير الطلب:

- «ماما عايزين لحمة مشوية»

أخذت أحصي ما جمعته؛ فأول الشهر على الأبواب وقد حان موعد تسديد إيجار حجرتنا وفاتورة الكهرباء والمياه والصيانة.

- «ما رأيكم في لحم الأرانب؟»

سارعت البنت الكبرى:

- «أرانب بالملوخية»

كانت أنثى تتفنن في جذب الذكور ولا يحلو لها الفعل الفاضح إلا أمام باب حجرتنا، وقد حان وقت تنفيذ الحكم عليها، استدرجتها للداخل وذبحتها.

أعجبهم طعم الأرانب بالملوخية لكن ما زال الطلب على اللحم المشوي، الصغير يطالب بما تمليه عليه أختاه:

- «عايزين لحمة مشوية»

ما يوفر اللحم المشوي حجمه أكبر من القط، وصعب المراس وأكيد لن يستسلم بسهولة، تقتضي الخطة تكميم فمه أولًا، ثم تكبيل قوائمه الأربعة، حزمت أمري ونويت التنفيذ.

❊ ❊ ❊



# الفهرس

❊ ❊ ❊



# التعريف بالكاتب

سيد إبراهيم السيد جعيتم

الشهرة: سيد جعيتم

- عضو عامل بنقابة اتحاد كتاب مصر.
- عضو بنادي أدب مصر الجديدة.

صدر لي:

- كتاب "عرق الحارة المصرية" (سيرة شعبية) فائز بجائزة النشر الإقليمي لإقليم القاهرة الكبرى وشمال الصعيد عام ٢٠١٩-٢٠٢٠.
- مجموعة قصصية "نبوءة".
- رواية "الحصاد".

